المجلد التاسع

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك شمس الملوك بانياس

في هذه السنة في صفر ملك شمس الملوك صاحب دمشق حصن بانياس من الفرنج . وسبب ذلك أن الفرنج استضعفوه وطمعوا قيه وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم فتعرضوا إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت وأخذوها ، فشكى التجار إلى شمس الملوك فراسل في إعادة ما أخذوه وكرر القول فيه فلم يردوا شيئاً فحملته الأنفة من هذه الحالة والغيظ على أن جمع عسكره وتأهب ولا يعلم أحد أين يريد . ثم سار وسبق خبره أواخر المحرم من هذه السنة ونزل على بانياس أول صفر وقاتله لساعته وزحف إليه زحفاً متتابعاً وكانوا غير متأهبين وليس فيه من المقاتلة من يقوم به ، وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه وتبعه الناس من الفارس والراجل ووصلوا إلى السور فنقبوه ودخلوا البلد عنوة والتجأ من كان من جند الفرنج إلى الحصن وتحصنوا به فقتل من البلد كثيراً من الفرنج وأسر كثيراً ، ونهبت الأموال . وقاتل القلعة قتالاً شديداً ليلاً ونهاراً فملكها رابع صفر بالأمان ، وعاد إلى دمشق فوصلها سادسه وأما الفرنج فإنهم لما سمعوا نزوله على بانياس شرعوا يجمعون عسكراً يسيرون إليه فأتاهم خبر فتحها فبطل ما كانوا فيه .

ذكر حرب بين المسلمين والفرنج

في هذه السنة في صفر سار ملك الفرنج صاحب البيت المقدس في خيالته ورجالته إلى أطراف أعمال حلب فتوجه إليه الأمير أسوار النائب بحلب فيمن عنده من العسكر ،

وانضاف إليه كثير من التركمان ، فاقتتلوا عند قنسرين فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة وانهزم المسلمون إلى حلب .
وتردد ملك الفرنج في أعمال حلب فعاد أسرار وخرج اليه فيمن معه من العسكر فوقع على طائفة منهم فأوقع بهم وأكثر القتل

فيهم والأسر ، فعاد من سَلِمَ منهزماً إلى بلادهم وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر . ودخل أسوار حلب ومعه الأسرى ورؤوس القتلى ، وكان يوماً مشهوداً ثم إن طائفة من الفرنج من الرها قصدوا أعمال حلب للغارة عليها فسمع بهم أسوار فخرج إليهم هو والأمير حسان البعلبكي فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال وأسروا من لم تجتل ورجعوا إلى حلب سالمين .

ذكر عود السلطان مسعود إلى السلطنة وانهزام الملك طغرل

قد تقدم ذكر انهزام السلطان مسعود من عمه السلطان سنجر وعوده إلى كنجة وولاية الملك طغرل السلطنة وأنه نحارب هو والملك داود ابن أخيه محمود وانهزام داود ودخوله بغداد ، فلما بلغ السلطان مسعود انهزام داود وقصده بغداد سار هو إلى بغداد أيضاً فلما قاربها لقيه داود وترجل له وخدمه ودخلا بغداد، ونزل مسعود بدار السلطنة في صفر من هذه السنة وخاطب في الخطبة له فأجيب إلى ذلك وخطب له ولداود بعده وخلع عليهما . ودخلا إلى الخليفة فأكرمهما ووقع الاتفاق على مسير مسعود وداود إلى أذربيجان ، وأن يرسل الخليفة معهما عسكر فساروا فلما وصلوا إلى مراغة حمل آقسنقر الأحمديلي مالاً كثيراً وإقامة عظيمة ، وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان وانهزم من بها من الأمراء مثل قراسنقر وغيره من بين يديه وتحصن منه كثير منهم بمدينة أردبيل فتصدهم وحصرهم بها وقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزم الباقون ثم سار بعد ذلك إلى همذان لمحاربة أخيه الملك طغرل ، فلما سمع طغرل بقربه برز إلى لقائه فاقتتلوا إلى الظهر ثم انهزم طغرل وقصد الري واستولى السلطان

مسعود على همذان في شعبان . ولما استقر مسعود بهمذان قتل آقسنقر الأحمديلي قتله الباطنية . فقيل : إن السلطان مسعوداً وضع عليه من قتله . ثم إن طغرل لما بلغ قم ، عاد إلى أصبهان ودخلها وأراد التحصن بها فسار إليه أخوه مسعود ليحاصره بها ، فرأى طغرل أن أهل أصبهان لا يطاوعونه على الحصار فرحل عنهم إلى بلاد فارس واستولى مسعود على أصبهان وفرح أهلها به ، وسار من أصبهان نحو فارس يقتص أثر أخيه طغرل فوصل إلى موضع بقرب البيضاء فاستأمن أليه أمير من أمراء أخيه معه أربعمائة فارس فأمنه ، فخاف طغرل من عسكره أن. ينحازوا إلى أخيه فانهزم من بين يديه وقصد الري في رمضان وقتل وزيره أبا القاسم الأنساباذي في الطريق . وفي شوال قتله غلمان الأمير شيركير الذي سعى في

قتله كما تقدم ذكره وسار السلطان مسعود يتبعه فلحقه بموضع يقال له ذكراور، فوقع بينهما المصاف هناك فلما اشتبكت الحرب انهزم الملك طغرل فوقع عسكره في أرض قد نضب عنها الماء وهي وحل ، فأسر منهم جماعة من الأمراء منهم الحاجب تنكروابن بغرا فأطلقهم السلطان مسعود . ولم يقتل في هذا المصاف إلا نفر يسير ورجع السلطان مسعود إلى همذان.

ذكر حصر المسترشد باللّه الموصل

في هذه السنة 527حصر المسترُشد باللّه مدينة الموصل في العشرين من شهر رمضان . وسبب ذلك ما تقدم من قصة الشهيد زنكي ببغداد على ما ذكرناه قبل فلما كان الآن قصد جماعة من الأمراء السلجقية باب المسترشد بالله وصاروا معه فقوي بهم ، واشتغل السلاطين السلجقية بالخلفي الواقع بينهم فأرسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الِإسفرايني، الواعظ إلى عماد الدين زنكي برسالة فيها خشونة زادها أبا الفتوح زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة– فقبض عليه عماد افدين زنكي وأهانه ولقيه بما يكره ، فأرسل المسترشد بالله إلى السلطان مسعود يعرفه الحال الذي جرى من زنكي ويعلمه أنه على قصد الموصل وحصرها وتمادت الأيام إلى شعبان . فسارعن بغداد في النصف منه في ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقها أتابك زنكي في بعض عسكره ، وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين جقر دزدارها والحاكم في دولته وأمرهم بحفظها ونازلها الخليفة وقاتلها وضيق على من بها. وأما عماد الدين فإنه سار إلى سنجار وكان يركب كل ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ومتى طفر بأحد من العسكر

أخذه ونكل به وضاقت الأمور بالعسكر أيضاً وتواطأ جماعة من الخصاصين بالموصل على تسليم البلد فسعى بهم فأخذوا وصلبوا وبقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ، ولم يظفر منها بشيء ولا بلغه عمن بها وهن ولا قلة ميرة وقوت فرحل عنها عائداً إلى بغداد، فقيل : إن نصر الخادم وصل إليه من عسكر السلطان ،وأبلغه عن عسكر السلطان مسعود ما أوجب مسيره وعوده إلى بغداد . وقيل : بلغه إن السلطان مسعوداً عزم على قصد بغداد فعاد بالجملة وإنه رحل عنها منحدراً في شبارة في دجلة فوصل إلى بغداد يوم عرفة .

ذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة

وفي هذه السنة أيضاً في شوال ملك شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة وقلعتها وهي لأتابك زنكي بن آقنسقر أخذها من تاج الملوك كما ذكرنا ولما ملك شمس الملوك قلعة بانياس أقام بدمشق إلى شهر رمضان من هذه السنة . وسار إلى حماة في العشر الأخير منه وسبب طمعه أنه بلغه أن المسترشد بالله يريد أن يحصر المؤصل فطمع ، وكان الوالي بحماة قد سمع الخبر فتحصن واستكثر من الرجال والذخائر ، ولم يبق أحد من أصحاب شمس الملوك إلا وأشار عليه بترك قصدها لقوة صاحبها ، فلم يسمع منهم . وسار إليها وحضر المدينة وقاتل من بها يوم العيد وزحف إليها من وقته فتحصنوا منه وقاتلوه فعاد عنهم ذلك اليوم فلما كان الغد بكر إليهم وزحف إلى البلد من جوانبه فملكه قهراً وعنوة، وطلب من به الأمان فأمنهم وحصر القلعة ولم تكن في الحصانة والعلو على ما هي اليوم فإن تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قطع جبلها وعملها هكذا في سنين كثيرة فلما حصرها عجز الوالي بها عن حفظها فسلمها إليه فاستولى عليها وعلى ما بها منَ ذخائر وسلاح وغير ذلك . وسار منها إلى قلعة شيزر وبها صابحها من بني منقذ فحصرها ونهب بلدها فراسله صاحبها وصانعه بمال حمله إليه فعاد عنه الى دمشق فوصل إليها في ذي القعدة من السنة المذكورة.

ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجي

وفي هذه السنة عبر إلى الشام جمع كثير من التركمان من بلاد الجزيرة وأغاروا على بلاد طرابلس وغنموا وقتلوا كثيراً ، فخرج القمص صاحب طرابلس في جموعه فانزاح

التركمان من بين يديه فتبعهم فعادوا إليه وقاتلوه فهزموه وأكثروا القتل في عسكره ، ومضى هو ومن سلم معه إلى قلعة بعرين فتحصنوا فيها وامتنعوا عن التركمان فحصرهم التركمان فيها ، فلما طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارساً من أعيان أصحابه سراً فنجوا وساروا إلى طرابلس وترك الباقين في بعرين يحفظونها . فلما وصل إلى طرابلس كاتب الفرنج فاجتمع عنده منهم خلق كثير وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعرين . فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقتل بينهم خلق كثير وأشرف الفرنج على الهزيمة فجمعوا نفوسهم وعادوا على حمية

الى رفنية فتعذر على التركمان اللحاق بهم إلى وسط بلادهم فعادوا عنهم راجعين .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اشترى الإسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون وصدوا إليه وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج ، وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم وفيها وقع الخلف بالشام فقاتل بعضهم بعضاً ولم تجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة وقتل بينهم جماعة. وفيها في جمادى الآخرة أغار الأمير سوار مقدم عسكر زنكي بحلب على ولاية تل باشر فغنم ،لكثير فخرج إليه الفرنج في جموع كثير فقاتلوه فظفر بهم وأكثر القتل فيهم ، وكان عدة القتلى نحو ألف قتِيل وعاد سالماً . وفيها تاسع ربيع الآخر وثب على شمس الملوك صاحب دمشق بعض مماليك جده طغدكن فضربه بسيف فلم يعمل فيه شيئاً وتكاثر عليه مماليك شمس الملوك فأخذوه وقرر ما الذي حمله على ما فعل فقال : أردت إراحة المسلمين من شرك وظلمك ، ولم يزل يضرب حتى أقر على جماعة أنهم وضعوه على ذلك فقتلهم شمس الملوك بغير تحقيق ، وقتل معهم أخاه سونج فعظم ذلك على الناس ونفروا عنه . وفيها توفي الشيخ أبو الوفاء الفارسي وكان له جنازة مشهودة حضرها أعيان بغداد . وفيها في رجب توفي القاضي أبو العباس أحمد بن سلامة بن عبد الله بن مخلد المعروف بابن الرطبي الفقيه الشافعي قاضي الكرخ ، وتفقه على أبي إسحاق وأبي نصر بن الصباغ وسمع الحديث ورواه وكان قريباً من الخليفة يؤدب أولاده . وتوفي أبو الحسين علي

بن عبد الله بن نصر المعروف بابن الزاغوني الفقيه الحنبلي الواعظ وكان ذا فنون توفي في المحرم .

وتوفي علي بن يعلى بن عوض بن القاسم الهروي كان واعظاً وله بخراسان قبول كثير وسمع الحديث فأكثر. ومحمد بن أحمد بن علي أبو عبدالله العثماني ، وهو من أولاد محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . وكان محمد يلقب بالديباج لحسنه وأصله من مكة وهو من أهل نابلس . وكان مغالياً في مذهب الأشعري وكان يعظ توفي في صفر . وفيها توفي أبو فليتة أمير مكة وولي الإمارة بعده ابنه القاسم . وفيها توفي العزيز بن هبة الله بن علي الشريف العلوي الحسيني فجأة بنيسابور ، وكان جده نقيب النقباء بخراسان وعرض على العزيز هذا نقابة العلويين فامتنع وعرض عليه وزارة السلطان فامتنع ولزم الانقطاع والاشتغال بأمر آخرته . وفيها توفي قاضي قضاة خراسان أبو سعيد محمد بن أحمد بن صاعد وكان خيراً صالحاً .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك شمس الملوك شقيق تيرون ونهبه بلد الفرنج

في هذه السنة في المحرم سار شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق منها إلى شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به فتحاماه المسلمون والفرنج يحتمي على كل طائفة بالآخرين فسار شمس الملوك إليه في هذه السنة وأخذه منه في المحرم وعظم أخذه على الفرنج لأن الضحاك كان لا يعترض إلى شيء من بلادهم المجاورة له ، فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم ، فلما اجتمعت ساروا إلى بلد حوران فخربوا أمهات البلد ونهبوا أماكنهم نهبة ، وكان شمس الملوك لما رآهم يجمعون جمع هو أيضاً وحشدوا وحضر عنده جمع كثير من التركمان وغيرهم فنزل بإزاء الفرنج ، وجرت بينهم مناوشة عدة أيام ثم إن شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقي قبالة الفرنج وهم لا يشعرون وقصد بلدهم طبرية والناصرة وعكا وما يجاورها من البلاد، فنهب وخرب وأحرق وسبى النساء والذرية وامتلأت أيدي من معه من الغنائم واتصل الخبر بالفرنج فانزعجوا ورحلوا في الحال لا يلوي أخ على أخيه وطلبوا بلادهم . وأما شمس الملوك فإنه عاد إلى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الفرنج فوصل سالماً ورأى الفرنج بلادهم خراباً ففت في أعضادهم وتفرقوا وراسلوا في تجديد الهدنة فهادنهم شمس الملوك في ذي القعدة للسنة .

ذكر عود آلملك طغرل إلى الجبل وانهزام الملك مسعود

في هذه السنة عاد الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه ملك بلاد الجبل جميعها وأجلى عنها أخاه السلطان مسعوداً . وسبب ذلك أن مسعوداً لما عاد من حرب أخيه

طغرل بلغه عصيان داود ابن أخيه السلطان محمود بأذربيجان فسار إليه وحصره بقلعة رونزر وكان قد تحصن بها واشتغل بحصره ، فجمع الملك طغرل العساكر واستمال بعض تواد مسعود ولم يزل يفتح البلاد فكثرت عساكره وقصد مسعوداً فلما قارب قزوين سار مسعود نحوه فلما تراءى العسكر فارق مسعوداً من أمرائه من كان قد استماله طغرل فبقي في قلة.من العسكر فولى منهزماً أواخر رمضان ، وأرسل إلى المسترشد بالله في القدوم لبغداد فأذن له وكان نائبه بأصفهان البقش السلاحي ومعه الملك سلجوق شاه فلما سمع بانهزام مسعود قصد بغداد أيضاً فنزل سلجوق شاه بدار السلطان فأكرمه الخليفة وأنفذ إليه عشرة آلاف دينار . ثم قدم مسعود بغداد وأكثر أصحابه ركاب جمال لعدم ما يركبونه ولقي في طريقه شدة فأرسل إليه الخليفة الدواب والخيام والآلات وغيرها من الأموال والثياب ، فدخل الدار السلطانية ببغداد منتصف شوال وقام طغرل بهمذان .

ذكر حصر أتابك زنكي آمد وملكه قلعة الصور

في هذه السنة اجتمع أتابك زنكي وتمرتاش صاحب ماردين وقصدا مدينة آمد؛ فحصراها ، فأرسل صاحبها إلى داود بن سُقمان صاحب حصن كيفا يستنجده ، فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلهما عنها فالتقوا على باب آمد وتصافوا في جمادى الآخرة فاقتتلوا فانهزم داود وعاد مفلولاً وقتل جماعة من عسكره . واقام زنكي وتمرتاش على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر وشعثا البلد ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض فقصد زنكي قلعة الصور من ديار بكر وحصرها وضايقها فملكها في رجب من هذه لمسنة ، واتصل به ضياء

الدين أبو سعيد بن الكفرتوثي فاستوزره زنكي وكان حسن الطريقة عظيم الرياسة والكفاية محباً للخير .

ذكر ملك زنكي قلاع الأكراد الحميدية

في هذه السنة استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما . وكان لما ملك الموصل أقر صاحبها الأمير عيسى الحميدي على ولايتها وأعمالها ولم يعترضه على شيء مما هو بيده . فلما حضر المسترشد إلى الموصل حضر عيسى هذا عنده وجميع الأكراد عنده فأكثر ، فلما رحل المسترشد عن الموصل، أمر زنكي أن تحصر قلاعهم فحصرت مدة طويلة وقوتلت قتالًا

شديداً إلى أن ملكت هذه السنة ، فاطمأن إذاً أهل السواد المجاورون لهؤلاء القوم فانهم كانوا معهم في ضائقة كبيرة من نهب أموالهم وخراب البلاد .

ذكر ملك قلاع الهكارية وكواشي

وحكي عن بعض العلماء من الأكراد ممن له معرفة بأحوالهم أن أتابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية وأجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبدالله صاحب قلعة أشب والجزيرة ونوشى ، فأرسل إلى أتابك زنكي من استحلفه له وحمل إليه مالاً وحضر عند زنكي بالموصل . فبقي مدة ثم مات فدفن بتل نوقة ، ولما شار عن أشب إلى الموصل أخرج ولده أحمد بن أبي الهيجاء منها خوفاً أن يتغلب عليها وأعطاه قلعة نوشى ، وأحمد هذا هو والد علي بن أحمد المعروف بالمشطوب من أكابر أمراء صلاح الدين بن أيوب بالشام ولما أخرجه أبوه من أشب استناب بها كردياً يقال له : باو الأرجي ، فلما مات أبو الهيجاء سار ولده أحمد من نوشى إلى أشب ليملكها فمنعه باووأراد حفظها لولد صغير لأبي الهيجاء اسمه علي فسار زنكي بعسكره فنزل على أشب وملكها . وسبب ملكها أن أهلها نزلوا كلهم إلى القتال فتركهم زنكي حتى قاربوه واستجرهم حتى أبعدوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا فوضع السيف فيهم فأكثر القتل والأسر . وملك زنكي القلعة في الحال وأحضر جماعة من مقدمي الأكراد فيهم باو فقتلهم وعاد عنها إلى الموصل ثم سار عنها ، ففي غيبته أرسل نصير الدين جقر نائب زنكي وخرب أشب وخلى كهيجة ونوشى وقلعة الجلاب – وهي قلعة العمادية – وأرسل إلى قلعة الشعباني وفرح وكوشر والزعفران وألقى وسروة وهي

حصون المهرانية فحصرها فملك الجميع واستقام أمر الجبل والزوزان ، وأمنت الرعايا من الأكراد . وأما باقي الهكارية جبل صور وهرور والملاسي ومابرما وبابوخلو باكزا ونسباس فإن قراجاً صاحب العمادية فتحها من مدة طويلة بعد قتل زنكي ، وهذا قراجا كان أميراً قد أقطعه زين الدين على بلد الهكارية بعد قتل زنكي ولم أعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرته ههنا .

وحكى غير هذا بقض فضلاء الأكراد وخالف فيه فقال : إن زنكي لما فتح قلعة أشب وخربها وبنى قلعة العمادية ولم يبق في الهكارية إلا صاحب جبل صور وصاحب هرور ولم يكن لهما شوكة يخاف منها عاد إلى الموصل فخافه أصحاب القلاع الجبلية فاتفق أن عبدالله بن عيسى بن إبراهيم صاحب الربية وألقى وفرح وغيرها توفي وملكها

بعده ولده علي ، وكانت والدته خديجة بنت الحسن أخت إبراهيم وعيسى وهما من الأمراء مع زنكي وكانا بالموصل فأرسلها ولدها علي إلى أخويها وطلبا له الأمان من زنكي وحلفاه له ففعل ونزل إلى خدمة زنكي وأقره على قلاعه ، واشتغل زنكي بفتح قلاع الهكارية وكان الشعباني بيد أمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فأخذه منه وقربه منه لكبره وقلة أعماله . وكان نصير الدين جقر يكره علياً صاحب الربية وغيرها فحسن لزنكي القبض عليه فأذن له في ذلك فقبض عليه ، ثم ندم زنكي على قبضه فأرسل إلى نصير الدين أن يطلقه فرآه قد مات قيل إن نصير الدين قتله ، ثم أرسل العسكر إلى قلعة الربية فنازلوها بغتة فملكوها في ساعة وأسروا كل من بها من ولد علي وإخوته وأخواته ، وكانت والدة علي خديجة غائبة فلم توجد فلما سمع زنكي الخبر بفتح الربية سرة وأمر أن تسير العساكر إلى باقي القلاع التي لعلي فسارت العساكر فحصروها فرأوها منيعة فراسلهم زنكي ووعدهم الإحسان فأجابوه إلى التسليم على شرط أن يطلق كل من في السجن منهم فلم يجبهم إلى ذلك إلا أن يسلموا أيضاً قلعة كواشي ، فمضت خديجة والدة علي إلى صاحب كواشي واسمه خول وهارون وهو من المهرانية فسألته النزول عن كواشي فأجابها إِلى ذلك وتسلم زنكي القلاع وأطلق الأسرى فلم يسمع بمثل هذا ، فقال : ينزل عن مثل كواشي لقول امرأة فإما أن يكون أعظم الناس مروءة لا يرد من دخل بيته وإما أن يكون أقل الناس عقلاً واستقامت ولاية الجبال .

في هذه السنة أوقع الدانشمد صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيراً منهم وفيها اصطلح الخليفة وأتابك زنكي . وفيها في ربيع الأول عزل أنو شروان بن خالد عن وزارة الخليفة . وفيها توفيت أم المسترشد بالله . وفيها سيَّر المسترشد عسكر إلى تكريت فحصروا مجاهد الدين بهروز فصانع عنها بمال فعادوا عنه . وفيها اجتمع جمع من العساكر السنجرية مع الأمير أرغش وحصروا قلعة كردكوه بخراسان وهي للاسماعيلية وضيقوا على أهلها وطال حصرها وعدمت عندهم الأقوات ، فأصاب أهلها تشنج وكزاز وعجز كثير منهم عن القيام فضلاً عن القتال فلما ظهرت أمارات الفتح رحل الأمير أرغش فقيل إنهم حملوا إليه مالاً كثيراً وأعلاقاً نفيسة فرحل عنهم .

وفيها توفي الأمير سليمان بن مهارش العقيلي أمير بني عقيل وولي الإمارة بعده أولاده مع صغر سنهم وطيف بهم في بغداد رعاية لحق جدهم مهارش فإنه هو الذي كان الخليفة القائم بأمر الله عنده لما فعل به البساسيري ما ذكرنا . وفيها توفي الفقيه أبو علي الحسن بن ابراهيم بن فرهون الشافعي الفارقي ومولده سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وتفقه على أبي عبدالله الكازروني فلما توفي الكازروني انحدر الى بغداد وتفقه على أبي إسحاق الشيرازي وأبي نصر الصباغ وولي القضاء بواسط وكان خيراً فاضلاً لا يواري ولا يحابي أحداً في الحكم . وفيها توفي عبدالله بن محمد بن أحمد بن الحسن وأبو محمد بن أبي بكر الفقيه الشافعي تفقه على أبيه وكان يعظ ويكثر في كلامه من التجانس فمن ذلك قوله : أين القدود العالية والخدود الوردية مثلت بها والله العافية والوردية وهما مقبرتان بنهر معلى ومن شعره :

- الدمع دماً يَسيلُ من أجفاني إن عشت مع البكا فما أجفاني
- سجني شجي وهمني سماني العاذل بالملام قد سماني
- والذكر لهم يزيد في أشجاني والنوح مع الحمام قد أشجاني
- ضاقت ببعاد منيتي أعطاني والبين يد الهموم قد أعطاني

وفيها توفي ابن أبي الصلت الشاعر ومن شعره يذم ثقيلاً :

لي صديق عجبت كيف استطاعت هذه الأرض والجبال ثقله

أنا أرعاه مكرماً وبقلبي منه ما يتلف الجبال أقله

هو مثل المشيب أكره رؤياهُ ولكن أصونه وأجله

وله أيضاً :

ساد صغار الناس من عصرنا لا دام من عصر ولا كانا

كالدست مهما هم أن ينقضي صار به البيدق فرزانا

وفيها توفي محمد بن علي بن عبد الوهاب أبو رشيد الفقيه الشافعي من أهل طبرستان وسمع الحديث أيضاً ورواه ، وكان زاهداً عابداً أقام بالجزيرة وهي جزيرة ابن عمر سنين منفرداً يعبد الله سبحانه وتعالى وعاد الى آمل وقبره بها .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة

ذكر وفاة الملك طغرل وملك مسعود بلد الجبل

قد ذكرنا قدوم السلطان مسعود إلى بغداد منهزماً من أخيه الملك طغرل وأن الخليفة أكرمه وحمل إليه ما يحتاج إليه مثله ، وأمره بالمسير إلى همذان وجمع العساكر ومنازعة أخيه طغرل في السلطنة والبلاد ومسعود يعد ويدافع الأيام والخليفة يحثَّه على ذلك ، ووعده أن يسير معه بنفسه وأمر أن يبرز خيامه إلى باب الخليفة . وكان قد اتصل الأمير البقش السلاحي وغيره من الأمراء بالخليفة وطلبوا خدمته فأجابهم وصاروا معه واتفق أن إنساناً أخذ فوجد معه ملطفات من طغرل إلى هؤلاء الأمراء بالأقطاع لهم فلما رأى الخليفة ذلك قبض على أمير منهم اسمه غلبك ونهب ماله فاستشعر غيره من الأمراء الذين مع الخليفة فهربوا إلى عسكر السلطان مسعود ، فأرسل الخليفة إليه في إعادتهم إليه فلم يفعل واحتج بأشياء فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما نفرة ووحشة أوجبت تأخره عن المسير معه ، وأرسل إليه يلزمه بالمسير معه أمراً جزماً فبينما الأمر على هذا إذ جاءه الخبر بوفاة أخيه طغرل ، وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة ، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة في المحرم ، وكان خيراً عاقلاً عادلًا قريباً إلى الرعية محسناً إليهم . وكان قبل موته قد خرج مكن داره يريد السفر لقتال أخيه مسعود فدعا له الناس فقال ادعوا بخيرنا للمسلمين ولما توفي ووصل الخبر إلى مسعود سار من ساعته نحو همذان وأقبلت العساكر جميعها إليه واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد ، وكان

قد خرج صحبته هو وأهله ووصل مسعود الى همذان واستولى عليها وأطاعته البلاد جميعها وأهلها .

ذكر قتل شمس الملوك وملك أخيه

في هذه السنة رابع عشر ربيع الأخر.قتل شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك

بوري بن طغدكين صاحب دمشق وسبب قتله أنه ركب طريقاً من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم في أعمال البلد ، وبالغ في العقوبات لاستخراج الأموال وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس بحيث أنه لا يأنف من أخذ الشيء الحقير بالعدوان إلى غير ذلك من الأخلاق الدنيئة وكرهه أهله وأصحابه ورعيته ثم إنه ظهر عنه أنه كاتب عماد الدين زنكي أنه يسلم إليه دمشق ويحثَّه على سرعة الوصول وأخلى المدينة من الذخائر والأموال ونقل الجميع إلى صوبه وتابع الرسل إلى زنكي يحثه على الوصول إليه ، ويقول له إن أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج فسار زنكي فظهر الخبر بذلك فامتعض أصحاب أبيه وجده وأقلقهم وذكروا الحال لوالدته فساءها وأشفقت منه ووعدتهم بالراجة من هذا الأمر . ثم إنها ارتقبت الفرصة في الخلوة من غلمانه فلما رأته على ذلك أمرت غلمانها بقتله فقتل وأمرت بإلقائه على موضع في الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه ،فلما رأوه قتيلاً سروا لمصرعه وبالراحة من شره ، وكان مولده سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة وقيل كان سبب قتله أن والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز ، وكان متمكناً منه ما ماكناً في دولته في دولة شمس الملوك بعده فاتهم بأم شمس الملوك ووصل الخبر إليه بذلك ، فهمَّ بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر وتحصن بها وأظهر الطاعة لشمس الملوك ؛ فأراد قتل أمه فبلغها الخبر فقتلته خوفاً منه والله أعلم . ولما قتل ملك بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك وحلف له الناس واستقر له الملك بعده ؛ والله أعلم .

في هذه السنة حصر أتابك زنكي دمشق ونازلها أول جمادى الأولى . وسببه ما ذكرنا من إرسال شمس الملوك صاحبها إليه واستدعائه ليسلمها إليه فلما وصلت كتبه ورسله سار إليها فقتل شمس الملوك قبل وصوله ، ولما عبر الفرات أرسل إليه رسلاً في تقرير قواعد التسليم فرأوا الأمر قد فات إلا أنهم أكرموا وأحسن إليهم وأعيدوا بأجمل هيئة وعرفوا زنكي بقتل شمس الملوك وأن القواعد عندهم مستقرة لشهاب الدين والكلمة متفقة على طاعته ، فلم يحفل زنكي بهذا الجواب وسار إلى دمشق فنازلها وأجفل أهل السواد إليها واجتمعوا فيها على محاربته ، ونزل أولاً شماليها ثمٍ انتقل إلى ميدان الحصى وزحف وقاتل ، فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقا تاماً على

محاربته وقام معين الدين أنز مملوك جده طغدكين في هذه الحادثة بدمشق قياماً مشهوداً وظهر من معرفته بأمور الحصار والقتال وكفايته ما لم يَرَو ما كان سبب تقدمه واستيلائه على الأمور بأسرها – على ما نذكر إن شاء الله تعالى – فبينما هو يحاصرها وصل رسول الخليفة المسترشد بالله وهو أبو بكر بن بشر الجزري من جزيرة ابن عمر بخلع أتابك زنكي ويأمره بصلح صاحب دمشق الملك ألب أرسلان محمود الذي مع أتابك زنكي ، فرحل عنها لليلتين مَضِينَ من جمادى الأولى من السنة المذكورة .

ذكر قتل حسن بن الحافظ

قد ذكرنا سنة ست وعشرين وخمسمائة أن الحافظ لدين الله صاحب مصر استوزر ابنه حسناً وخطب له بولاية العهد فبقي إلى هذه السنة ومات مسموماً . وشبب ذلك أنه كان جريئاً على سفك الدماء ، وكان في نفس الحافظ على الأمراء الذين أعانوا أبا علي بن الأفضل حقد ويريد الانتقام –منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه ، فاستوزر ابنه وأمره بذلك فتغلب على الأمر جميعه ، واستبد به ولم يبق لأبيه معه حكم وقتل من الأمراء المصريين ومن أعيان البلاد جمعاً حتى قيل : انه قتل في ليلة واحدة أربعين أميراً فلما رأى أبوه تغلبه عليه أخرج له خادماً من خدم القصر الأكابر ، فجمع الجموع وحشد من الرجالة خلقاً كثيراً وتقدم إلى القاهرة ليقاتل حسناً ويخرجه منها ، فأرسل له جماعة من خواصه وأصحابه فقاتلوهم فانهزم الخادم وقتل الرجال الذين معه وعبر الباقون إلى الجيزة فاستكان الحافظ فصبر تحت الحجر . ثم إن الباقين من الأمراء المصريين اجتمعوا واتفقوا على قتل

حسن وأرسلوا إلى أبيه الحافظ وقالوا له : إما أنك تسلم ابنك إلينا لنقتله أو نقتلكما جميعاً فاستدعى ولده إليه واحتاط عليه وأرسل إلى الأمراء بذلك فقالوا لا نرضى إلا بقتله فرأى أنه إن سلمه إليهم طمعوا فيه وليس إلى إبقائه سبيل . فأحضر طبيبين كانا له أحدهما مسلم والأخر يهودي فقال لليهودي : نريد سماً نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة فقال : أنا لا أعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الأدوية ، فقال : أنا أريد ما أخلص به من هذه المصيبة ، فقال له لا أعرف شيئاً فأحضر المسلم وأمره بذلك فصنع له شيئاً فسقاه الولد فمات لوقته ، فأرسل الحافظ إلى الجند يقول لهم إنه قد مات فقالوا : نريد ننظر إليه فأحضر بعضهم عنده فرأوه وظنوه قد عمل حيلة فجرحوا أسافل رجليه فلم يجرمنها دم فعلموا موته ودفن

حسن وأحضر الحافظ الطبيب المسلم وقال له : أخرج من عندنا من القصر وجميع مالك من الإنعام والجامكية باقٍ عليك ، وأحضر اليهودي وقال : أعلم أنك تعرف ما طلبته منك ولكنَّك عاقل فتقيم في القصر عندنا وكان حسن سيء السيرة طالماً جريئاً على سفك الدماء ، وأخذ الأموال ، فهجاه الشعراء ؛ فمن ذلك ما قال المعتمد بن الأنصاري صاحب الترسل المشهور في

- لم تأت يا حسن بين الورى حسناً ولم تر الحق في دنيا ولا دين
- قتل النفوس بلا جرم ولا سبب والجور في أخذ أموال المساكين
- لقد جمعت بلا علم ولا أدب تيه الملوك وأخلاق المجانين

وقيل : إن الحافظ لما رأى ابنه تغلب على الملك وضع عليه من سقاه السم فمات والله أعلم ؛ ولما مات حسن استوزر الحافظ الأمير تاج الدولة بهرام ، وكان نصرانياً فتحكم واستعمل الأرمن على الناس فاستذلوا المسلمين وسنذكر أخباره سنة احدى وثلاثين وخمسمائة إن شاء الله تعالى .

ذكر مسير المسترشد إلى حرب السلطان مسعود وانهزامه

في هذه السنة كان الحرب بين الخليفة المسترشد باللّه وبين السلطان مسعود في شهر رمضان . وسبب ذلك أن السلطان مسعود لما سافر من بغداد إلى همذان بعد موت أخيه طغرل وملكها فارقه جماعة من أعيان الأمراء منهم برتقش بازدار وقزل آخر وسنقر الخمارتكين ، والي همذان

وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم خائفين منه مستوحشين ومعهم عدد كثير ، ومعهم دبيس بن صدقة وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون منه الأمان ليحضروا في خدمته فقيل له إنها مكيدة لأن دبيساً معهم . وساروا نحو خوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق فأرسل الخليفة إليهم سديد الدولة ابن الأنباري بتوقيعات إلى الأمراء المذكورين بتطييب نفوسهم والأمر بحضورهم وكان الأمراء المذكورون قد عزموا س قبض حبيس والتقرب إلى الخليفة بحمله إليه ، فبلغه ذلك فهرب إلى السلطان مسعود وسار الأمراء إلى بغداد في رجب فأكرمهم الخليفة وحمل إليهم الإقامات والخلع وقطعت خطب السلطان مسعود من بغداد وبرز الخليفة في العشرين من رجب على عزم المسير الى قتال مسعود ، وأقام في الشفيعي فعصى عليه بكبه صاحب البصرة فهرب إليها فراسله وبذل له الأمان ، فلم يعد إليه وتريث الخليفة عن المسير وهؤلاء الأمراء يحسنون

له الرحيل ويسهلون عليه الأمر ويضعون عنده أمر السلطان مسعود فستر مقدمته إلى حلوان فنهبوا البلاد وأفسدوا ولم ينكر عليهم شيئاً ثم سار الخليفة ثامن شعبان ولحق به في الطريق الأمير برسق بن برسق ، فبلغت عدتهم سبعة آلاف فارس وتخلف بالعراق مع إقبال خادم المسترشد بالله ثلاثة آلاف فارس ، وكان السلطان مسعود بهمذان في نحو ألف وخمسمائة فارس وكان أكثر أصحاب الأطراف يكاتبون الخليفة ، ويبذلون له الطاعة ، فتريث في طريقه فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم حتى عادوا إليه ، فصاروا نحو خمسة عشر ألف فارس وتسلل جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقي في خمسة آلاف . وأرسل أتابك زنكي نجدة فلم يلحق وأرسل الملك داود ابن السلطان محمود وهو بأذربيجان إلى الخليفة يشير بالميل إلى الدينور ليحضر بنفسه وعسكره ، فلم يفعل المسترشد وسار حتى بلغ دايمرج وعبى أصحابه فجعل في الميمنة برنقش بازدار ونور الدولة سنقر وقزل آخر وبرسق بن برسق وجعل في الميسرة جاولي وبرسق شراب سلار وأغلبك الذي كان الخليفة قد قبض عليه وأخرجه من محبسه . ولما سمع السلطان مسعود خبرهم سار إليهم مجداً فواقعهم بدايمرج عاشر رمضان وانحازت ميسرة الخليفة إلى السلطان مسعود فصارت معه واقتتلت ميمنة الخليفة وميسرة السلطان قتالاً ضعيفاً ، ودارت عساكر السلطان حول عساكر الخليفة وهو ثابت لم يتحرك من مكانه وانهزم عسكره وأخذ هو أسيراً ومعه جمع كثير من أصحابه منهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي

وقاضي القضاة وصاحب المخزن ابن طلحة وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم ، وأنزل الخليفة في خيمة وغنموا ما في معسكره وكان كثيراً فحمل الوزير وقاضي القضاة وابن الأنباري وصاحب المخزن وغيرهم من الأكابر إلى قلعة سرجهان وباع الباقون نفوسهم بالثمن دون الطفيف ، ولم يقتل في هذه المعركة أحد وهذا أعجب ما يحكى . وعاد السلطان إلى همذان وأمر فنودي من تبعنا. إلى همذان من البغاددة قتلناه فرجع الناس كلهم على أقبح حال لا يعرفون طريقاً وليس معهم ما يحملهم . وسير السلطان الأمير بك أبه المحمودي إلى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد فقبضوا جميع أملاك الخليفة وأخذوا غلاتها وثار جماعة من عامة بغداد فكسروا المنبر والشباك ومنعوا من الخطبة ، وخرجوا من الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات في الأسواق يلطمن واقتتل أصحاب الشحنة وعامة بغداد فقتل من العامة ما يزيد على مائةٌ وخمسين قتيلاً وهرب

الوالي وحاجب الباب . وأما السلطان فإنه سار في شوال من همذان إلى مرغة لقتال الملك داود ابن أخيه محمود وكان قد عصى عليه فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه فترددت الرسل بين الخليفة وبين السلطان في الصلح فاستقرت القاعدة على ما نذكره إن شاء الله والله الموفق .

ذكر قتل المسترشد باللّه وخلافة الراشد باللّه

لما قبض المسترشد بالله أبو منصور بن الفضل بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد ، على ما ذكرناه ، جعله السلطان مسعود في خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة ، وأن لا يعود يجمع العساكر وأن لا يخرج من داره ، فأجاب السلطان إلى ذلك وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبق إلا أن يعود إلى بغداد فوصل الخبر أن الأمير قزان خوان قد ورد رسولاً من السلطان سنجر ، فتأخر مسير المسترشد لذلك وخرج الناس مع السلطان مسعود إلى لقائه وفارق الخليفة بعض من كان موكلاً به ، وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده أربعة وعشرون رجلًا من الباطنية ودخلوا عليه ، فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً وقتل معه نفر من أصحابه ، منهم : أبو عبدالله بن سكينة وكان قتله روم الأحد سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة وبقي حتى دفنه أهل مراغة . وأما الباطنية فقتل منهم عشرة ، وقيل بل قتلوا جميعهم والله أعلم ، وكان عمره لما قتل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر ؛ وكانت خلافته سبعة عشر سنة وستة أشهر وعشرين يوماً وأمه أم ولد ، وكان

شهماً شجاعاً كثير الإقدام بعيد الهمة وأخباره المذكورة ، ترى على ما ذكرناه ، وكان فصيحاً بليغاً حسن الخط ، ولقد رأيت خطه في غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه ، ولما قتل المسترشد بالله بويع ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور ، ولقب الراشد بالله وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وجددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة ، وكتب السلطان مسعود الى بك آبه الشحنة ببغداد يبايع له ، وحضر الناس البيعة وحضر بيعته أحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظة ، وأما جمال الدولة المسترشدي فكأنه كان ببغداد في طائفة من العسكر ، فلما جرت هذه الحادثة عبر الى

الجانب الغربي وأصعد إلى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز وحلفه وصعد اليه إلى القلعة.

ذكر مسير السلطان سنجر إلى غزنة وعوده عنها

في هذه السنة في ذي القعدة سار السلطان سنجر من خراسان إلى غزنة ، وسبب ذلك أنه نقل إليه عن صاحبها بهرام شاه أنه تغير عن طاعته وأنه قد مد يده إلى ظلم الرعايا واغتصاب أموالهم ، وكان السلطان سنجر هو الذي ملك غزنة وقد ذكرناه سنة تسع وخمسمائة ، فلما سمع هذه الأخبار المزعجة سار إلى غزنة ليأخذها أو يصلحه فلما رأى الطريق أبعد أدركهم شتاء شديد البرد كثير الثلج وتعذرت عليهم الأقوات والعلوفات ، فشكا العساكر إلى السلطان ذلك وذكروا له ما هم فيه من الضيق وتعذر ما يحتاجون إليه ، فلم يجب عنه بغير التقدم أمامه . فلما قارب غزنة أرسل بهرام شاه إلى سنجر رسلاً يتضرع ويسأل الصفح عن جرمه والعفو عن ذنبه فأرسل إليه سنجر المقرب جوهر الخادم وهو أكبر أمير عنده ومن جملة أقطاعه مدينة الري في جواب رسالته يجيبه عن العفو عنه إن حضر عنده وعاد إلى طاعته فلما وصل إلى بهرام شاه أجابه إلى ما طلب منه من الطاعة وحمل المال والحضور عنده بنفسه ، وأظهر من الطاعة والانقياد لما يحكم به السلطان سنجر شيئاً كثيراً ، وعاد المقرب جوهر ومعه بهرام شاه إلى سنجر فلما قاربه سبق المقرب إلى السلطان سنجر وأعلمه بوصول بهرام شاه وأنه بكرة غد يكون عنده ، وعاد المقرب إلى بهرام ثناه ليجيء بين يديه . وركب سنجر من الغد في موكبه لتلقيه ، وتقدم بهرام شاه ومعه المغرب فلما عاين موكب سنجر والشتر على

رأسه نكص على عقبيِه عائداً فأمسك المقرب عنانه وقبح فعله وخوفه عاقبة ذلك ، فلم يرجع وولى هارباً ولم يصدق بنجاته طناً منه أن سنجراً يأخذه ويملك بلده وتبعه طائفة من أصحابه وخواصه ولم يعرج على غزنة ، وسار سنجر إلى غزنة فدخلها وملكها واحتوى على جميع ما فيها وجبى أموالها وكتب إلى بهرام شاه يلومه على ما فعله ويحلف له أنه مما أراد به شرا ولا له في بلده مطمع ولا هو ممن تلون صنيعته وتعقب حسنته معه سيئة ، وإنما قصده لإصلاحه ، فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصل ويقول إن الخوف منعه من الحضور ولا لوم على من خاف من السلطان وتضرع في عوده إلى الإحسان فأجابه سنجر إلى أن يعيد عليه بلده وفارق غزنة عائداً إلى بلاده فوصل إلى بلخ في شوال سنة ثلاثين وخمسمائة واستقر ملك غزنة لبهرام شاه ورجع إليها .

ذكر قتل دبيس بن صدقة بالتاريخ

في هذه السنة قتل السلطان مسعود دبيس بن صدقة على باب سرادقة بظاهر مدينة خوى ، أمر غلاماً أرمنياً بقتله فوقف على رأسه وهو ينكت الأرض بأصبعه ، فضرب رقبته وهو لا يشعر ، وكان ابنه صدقة بالحلة فاجتمع إليه عسكر أبيه ومماليكه ، وكثر جمعه واستأمن إليه الأمير قغلغ تكين وأمر السلطان مسعود بك آبه أن يأخذ الحلة ، فسار بقض عسكره إلى المدائن وأقاموا مدة ينتظرون لحاق بك آبه فلم يسر إليهم جنباً وعجزاً عن قصد الحلة لكثرة العسكر بها مع صدقة ، وبقي صدقة بالحلة إلى أن قدم السلطان مسعود إلى بغداد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، فقصده وأصلح حاله معه ولزم باب السلطان ومثل هذه الحادثة تقع . كثيراً وهو قرب موت المتعادیين فإن دبيساً كان يعادي المسترشد بالله ويكره خلافته ولم يكن يعلم أن السلاطين إنما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدة لمقارنة المسترشد ، فلما زال السبب زال المسبب والله أعلم .

ذكر حصر عسكر يحيى المهدية

في هذه السنة سير يحيى بن عبد العزيز بن حماد صاحب بجاية عسكراً ليحصروا المهدية وبها صاحبها الحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس ، وكان سبب ذلك أن الحسن أحب ميمون بن زيادة أمير طائفة كبيرة من العرب ، ومال إليه وأكثر الإنعام عليه ، فحسده غيره من العرب فساروا إلى يحيى بن العزيز بأولادهم ، وجعلوهم رهائن عنده وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكراً ليملكوا المهدية فأجابهم إلى ذلك وهو متباطىء ، فاتفق أنه وصله كتب من بقض مشايخ

المهدية بمثل ذلك فوثق إلى ما أتاه وسير عسكراً كثيراً واستعمل عليهم قائداً كبيراً من فقهاء الصحابة يقال له مطرف بن حمدون ، وكان هذا يحيى بن العزيز هو وإياه يحضرون المعز بن باديس وأولاده بعده فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم من العرب جمع كثير حتى نزلوا علو المهدية وحصروها براً وبحراً ، وكان مطرف يظهر التقشف والتورع عن الدماء ، وقال إنما أتيت الآن لأتسلم البلد بغير قتال ، فخاب ظنه فبقي أياماً لم يقاتل ، ثم إنهم باشروا فظهروا أهل المهدية عليهم وأثروا فيهم وتتابع القتال ، وفي كل ذلك الظفر لأهل البلد وقتل من الخارجين الجم الغفير ، وجمع مطرف عسكره براً وبحراً لما يئس من التسليم وقاتل أشد تتال فملكت شواتيه شاطىء البحر وقاربوا من السور فاشتد الأمر ، فأمر الحسن

بفتح الباب وخرج أول الناس وحمل هو ومن معه عليهم وقال أنا الحسن ، فلما سمع من يقاتله ذلك سلموا عليه وانهزموا عنه إجلالاً له ، ثم أخرج الحسن شوانيه تلك الساعة من المينا ، فأخذ من تلك الشواني أربع قطع وهرب الباقون ؛ ثم وصلت نجدة من رجار الفرنجي صاحب صقلية في البحر في عشرين قطعة فحصرت شواني صاحب بجاية فأمرهم الحسن بإطلاقها فأطلقوها ثم وصل ميمون بن زيادة في كثير من العرب لنصرة الحسن فلما رأى ذلك مطرف وأن النجدات تأتي الحسن في البر والبحر علم أنه لا طاقة له بهم فرحل عن المهدية خائباً وأقام رجار الفرنجي مظهراً للحسن أنه مهادنه وموافقه وهو مع ذلك يعمر الشواني ويكثر عددها وآلاتها .

ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة

كانت جزيرة جربة من بلاد أفريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها ، غير أن اهلها طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ويرفون بالفساد وقطع الطريق ، فخرج اليها جمع من الفرنج أهل صقلية في أسطول كثير وجم غفير فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة ، فنزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهلتها واجتمع أهلها وقاتلوا قتالاً شديدا فوقع بين ا الفريقين وقعات عظيمة فثبت أهل جربة ، فقتل منهم بشر كثير فانهزموا ، وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وأطفالها ، وهلك أكتر رجالها ومن بقي منهم أخذوا لأنفسهم أماناً من صاحب صقلية وافتكوا أسرارهم وسببهم وحريمهم والله أعلم .

ذكر ملك الفرنج حصن روطة من بلاد الأندلس

في هذه السنة اصطلح المستنصر بالله بن هود والسليطين الفرنجي صاحب طليطلة مدة عشر سنين وكان السليطين قد أدمن غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف صاحبها عن مقاومته لقلة جنوده وكثرة الفرنج ، فرأى أن يصالحه مدة يستريح فيها هو وجنوده ويعتدون للمعاودة ، فترددت الرسل بينهم فاستقر الصلح على أن يسلم المستنصر إلى السليطين حصن روطة وهو من أمتع الحصون وأحصنها ، فاستقرت القاعدة واصطلحوا وتسلمت منه الفرنج الحصن كل وفعل المستنصر فعلة لم يفعلها قبله أحد .

وفي هذه السنة حصر ابن ردمير الفرنجي – لعنه الله – مدينة أفراغة من شرق الأندلس ، وكان الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بمدينة قرطبة أميراً على الأندلس لأبيه ، فجهز الزبير بن عمرو اللمتوني من قرطبة ومعه ألف فارس ، وسير معه ميرة كثيرة إلى أفراغة وكان يحيى بن غانية الأمير المشهور أمير مرسية وبلنسية من شرق الأندلس وإليه الأمر بها لأمير المسلمين علي بن يوسف ، فتجهز في خمسمائة فارس ، وكان عبد الله بن عياض صاحب مدينة لاردة فتجهز في مائتي فارس فاجتمعوا وحملوا الميرة وساروا حتى أشرفوا على مدينة أفراغة وجعل الزبير الميرة أمامه وابن غانية أمام الميرة وابن عياض أمام ابن غانية ، وكان شجاعاً وكذلك جميع من معه وكان ابن ردمير في اثني عشر ألف فارس ، فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين فقال لأصحابه اخرجوا وخذوا هذه الهدية التي أرسلها المسلمون إليكم ، وأدركه العجب ونفذ قطعة كبيرة من جيشه فلما قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسرهم ورد بعضهم على بعض وقتل فيهم والتحم القتال ، وجاء ابن ردمير بنفسه وعساكره جميعاً مدلين بكثرتهم وشجاعتهم فحمل ابن غانية وابن عياض في صدورهم واشتد الأمر بينهم وعظم القتال وكثر القتل في الفرنج ، وخرج في الحال أهل أفراغة جميعهم ذكرهم وأنثاهم صغيرهم وكبيرهم ، إلى خيام الفرنج فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا في العسكر واشتغل النساء بالنهب وحملوا جميع ما وجدوه هناك إلى المدينة من قوت وعدد وآلات وسلاح وغير ذلك ، وبينما المسلمون والفرنج في القتال

إذ وصل إليهم الزبير في عسكره فانهزم ابن ردمير وعسكره ولم يسلم منهم إلا القليل ، ولحق ابن ردمير بمدينة سرقسطة فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مفجوعاً بعد عشرين يوماً من الهزيمة وكان أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين وأعظمهم صبراً ، كان ينام على طارقته بغير وطاء وقيل له هلاً تسريت من بنات أكابر المسلمين اللاتي سبيت منهم فقال الرجل المحارب ينبغي أن يعاشر الرجال لا النساء وأراح الله منه وكفى المسلمين شره .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في شعبان زلزلت الأرض بالعراق والموصل وبلاد الجبل وغيرها وكانت الزلزلة شديدة وهلك فيها كثير من الناس والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان

في هذه السنة وصل برتقش الزكوي من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة بما كان قد استقر على المسترشد من المال وهو أربعمائة ألف دينار ، فذكر أنه لا شيء عنده وأن المال جميعه كان مع المسترشد بالله ، فنهب ، ثم بلغ الراشد بالله أن برتقش يريد التهجم على دار الخلافة وتفتيشها ليأخذ المال فجمع العساكر لمنعها وأمر عليهم كج آبه وأعاد عمارة السور ، فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبك آبه شحنة بغداد وهو من أمراء السلطان على أن يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة ، فبلغ ذلك الراشد بالله فاستعد لمنعهم وركب برتقش ومعه العسكر والأمراء البكجية ومحمد بن عكر(ا) في نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فأخرجوا عسكر السلطان إلى دار السلطان ، فساروا إلى طريق خراسان ثم انحدر بك أبه الى واسط وسار برتقش إلى البندنيجين ونهبت العامة دار السلطان .

ذكر اجتماع أصحاب الأطراف على حرب مسعود ببغداد وخروجهم عن طاعته

في هذه السنة اجتمع كثير من الأمراء وأصحاب الأطراف على الخروج عن طاعة السلطان مسعود فسار الملك داود ابن السلطان محمود في عسكر أذربيجان إلى بغداد ، فوصلها في رابع صفر ونزل بدار السلطان ، ووصل أتابك عماد الدين زنكي بعده من الموصل ، ووصل برتقش بازدار صاحب قزوين وغيرهما ، والبقش الكبير صاحب أصفهان ، وصدقة بن دبيس صاحب الحلة ومعه عنز بن أبي العسكر الجاواني يدبره وبتم

نقض صباه ، وابن برسق وابن الأحمديلي ، وخرج إليهم من عسكر بغداد كج أبه

(ا) فى نسخة ثانية "عسكر" ونسخة أخرى "عكه" .

والطرنطاي وغيرهما وجعل الملك داود في شحنكية بغداد برتقش بازدار ، وقبض الخليفة الراشد بالله على ناصح الدولة أبي عبدالله الحسن بن جهير أستاذ الدار وهو كان السبب في ولايته وعلى جمال الدولة إقبال المسترشدي ، وكان قدم إليه من تكريت وعلى غيرهما من أعيان دولته فتغيرت بنات أصحابه عليه وخافوه ، فأما جمال الدولة فان أتابك زنكي شفع فيه شفاعة تحتها إلزام ، فأطلق وصار إليه ونزل عنده ، وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين أبي الرضا بن صدقة إلى عماد الدين لتهنئته بالقدوم ، فأقام الوزير عنده وسأله أن يمنعه من الخليفة فأجابه إلى ذلك ، وعاد الموكب بغير وزير وأرسل زنكي من حرس دار الوزير من الهب ثم أصلح حاله مع الخليفة وأعاده إلى وزارته ، وكذلك أيضاً عبر عليه قاضي القضاة الزينبي وسار معه إلى الموصل ، ثم إن الخليفة جد في عمارة السور فأرسل له الملك داود من قلع أبوابه وأخرب قطعة منه ، فانزعج الناس ببغداد ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب للملك داود وجرت الأيمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكي وأرسل الخليفة إلى أتابك زنكي مائتي ألف دينار لينفقها ، ووصل الملك سلجوق شاه إلى واسط فدخلها وقبض على الأمير بك أبه ونهب ماله وانحدر أتابك زنكي إليه لدفعه عنها واصطلحا ، وعاد زنكي إلى بغداد وعبر إلى طريق خراسان وحث على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود ، وسار الملك داود نحو طريق خراسان فنهب العسكر البلاد ووصلت الأخبار بمسير السلطان مسعود إلى بغداد وفارق

الملك داود وأتابك زنكي فعاد أتابك زنكي إلى بغداد وفارق الملك داود ، وأظهر له أنه يمضي إلى مراغة إِذا فارق السلطان مسعود همذان ، تبرر الراشد بالله إلى ظاهر بغداد أول رمضان وسار إلى طريق خراسان ثم عاد بعد ثلاثة أيام ونزل عند جامع السلطان ، ثم دخل إلى بغداد خامس رمضان وأرسل إلى داود وسائر الأمراء يأمرهم بالعود إِلى بغداد فعادوا ، ونزلوا في الخيام وعزموا على قتال السلطان مسعود من داخل سور بغداد ووصلت رسل السلطان يبذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده ، فعرض الخليفة الرسالة عليهم فكلهم رأى قتاله فقال لهم الخليفة : وأنا أيضاً معكم على ذلك .

ذكر ملك شهاب الدين حمص

في هذه السنة فى الثاني والعشرين من ربيع الأول تسلم شهاب الدين محمود

صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها ، وسبب ذلك أن أصحابها أولاد الأمير خيرخان بن قراجا والوالي بها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر عماد الدين زنكي إليها وإلى أعمالها وتضييقهم على من بها من جندي وعامي فراسلوا شهاب الدين في أن يسلموها له ، ويعطيهم عوضاً عنها تدمر فأجابهم إلى ذلك ، وسار إليها وتسلمها منهم في التاريخ المذكور وسلم إليهم تدمر ، وأقطع حمص مملوك جده معين الدين أنز وجعل فيها نائباً عنه ممن يثق إليه من أعيان أصحابه ، وعاد عنها إلى دمشق فلما رأى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص عن أيديهم تابعوا الغارات إلى بلدها والنهب له والاستيلاء على كثير منه فجرى بينهم عدة وقائع وأرسل شهاب الدين إلى زنكي في المعنى واستقر الصلح بينهم وكف كل منهم عن صاحبه .

ذكر الفتنة بدمشق

في هذه السنة وقعت الفتنة بدمشق بين صاحبها والجند ، وسبب ذلك أفي الحاجب يوسف بن فيروز كان أكبر حاجب عند أبيه وجده ، ثم إنه خاف أباه شمس الملوك وهرب منه إلى تدمر ، فلما كان في هذه السنة سأل أن يحضر إلى دمشق وكان يخاف جماعة المماليك لأنه كان أساء إليهم وعاملهم أقبح معاملة فكلهم عليه حنق لا سيما في الحادثة التي خرج فيها شمس الملوك ، وقد تقدمت ، فإنه أشار بقتل جماعة برأيه وبقتل سونج بن تاج الملوك فصاروا كلهم أعداء مبغضين ، فلما طلب الأمان والحضور إلى دمشق أجيب إلى ذلك فأنكر جماعة الأمراء والمماليك قربه وخافوه أن يفعل بهم مثل فعله الأول ، فلم يزل يتوصل معهم حتى حلف لهم

واستحلفهم وشرط على نفسه أنه لا يتولى من الأمور شيئاً ، ثم إنه جعل يدخل نفسه في كثير من الأمور فاتفق أعداؤه على قتله ، فبينما هو يسير مع شهاب الدين وإلى جانبه أمير اسمه تراوش يحادثه ، إذ ضربه تراوش بالسيف فقتله ، فحمل ودفن في تربة والده بالعقيبة ، ثم إن تراوش والمماليك خافوا فلم يدخلوا البلد ونزلوا بظاهره وأرسلوا يطلبون قواعد استطالوا فيها فأجابهم إلى البعض فلم يقبلوا منه ثم ساروا إلى بعلبك وبها شمس الملوك محمد بن تاج الملوك صاحبها فصاروا معه فالتحق بهم كثير من التركمان وغيرهم ، وشرعوا في العيث والفساد–واقتضت الحال مراسلتهم وملاطفتهم وإجابتهم إلى ما طلبوا واستقرت الأحوال على ذلك ، وحلف كل منهم لصاحبه فعادوا إلى ظاهر دمشق ولم يدخلوا البلد

وخرج شهاب الدين صاحب دمشق إليهم واجتمع بهم وتجددت الأيمان وسار تراوش مقدم العسكر وإليه الحل والعقد وذلك في شعبان وزال الخلف ودخلوا البلد والله أعلم .

ذكر غزاة العسكر الأتابكي إلى بلاد الفرنج

في هذه السنة في شعبان اجتمعت عساكر أتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الأمير أسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم ، وقصدوا أعمال اللاذقية ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز ، فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم ، وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والعين والحلى فيخرج عن الحد وأخربوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها إلا القليل ، وخرجوا إلى شيزر بما معهم من الغنائم سالمين منتصف رجب فامتلأ من الأسارى والدواب وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً منهم ووهناً وضعفاً .

ذكر وصول السلطان مسعود إلى العراق

وتفرق أصحاب الأطراف ومسير الراشد باللّه إلى الموصل

قيل لما بلغ السلطان مسعود اجتماع الملك داود والأمراء ببغداد على خلافه ، وخطب للملك داود ابن أخيه السلطان محمود جمع العساكر ؛ وسار إلى بغداد فنزل بالملكية فسار بعض العسكر حتى شارفوا عسكره وطاردوهم ، وكان في الجماعة زين الدين علي أمير من أمراء أتابك زنكي ، ثم عادوا ووصل السلطان فنزل على بغداد وحصرها وجميع العساكر

فيها وثار العيارون ببغداد وسائر محالها وأفسدوا ونهبوا وقتلوا ، حتى أنه وصل صاحب لأتابك زنكي ومعه كتب فخرجوا عليه وأخذوها منه وقتلوه ، فحضر جماعة من أهل المحال عند الأتابك زنكي وأشاروا عليه بنهب المحال الغريبة ؛ فليس فيها غير عيار ومفسد فامتنع من ذلك ، ثم أرسل بنهب الحريم الظاهري فأخذ منه من الأموال الشيء الكثير ، وسبب ذلك أن العيارين فيه وأخذوا أموال الناس ونهبت العساكر غير الحريم من المحال ، وحصرهم السلطان نيفاً وخمسين يوماً فلم يظفر بهم ، فعاد إلى النهروان عازماً على العود إلى همذان فوصله طرنطاي صاحب

واسط ومعه سفن كثيرة فعاد إليها وعبر فيها إلى غربي دجلة ، وأراد العسكر البغدادي منعه فسبقهم إِلى العبور واختلفت كلمتهم فعاد الملك داود إلى بلده في ذي القعدة وتفرق الأمراء ، وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الخليفة الراشد بالله وسار معه إلى الموصل في نفريسير من أصحابه ، فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكي بغداد ، سار إليها واستقر بها ومنع أصحابه من الأذى والنهب . وكان وصوله منتصف ذي القعدة فسكن الناس واطمأنوا بعد الخوف الشديد وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين إلي حلف بها الراشد بالله لمسعود، وفيها بخط يده إني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر فأفتوا بخروجه من الخلافة وقيل غير ذلك ، وسنذكره في خلافة المقتفى لأمر الله ، وكان الوزير شرف الدين علي بن طراد وصاحب المخزن كمال الدين بن البقشلاني وابن الأنباري مع السلطان ، لأنهم عنده مذ أسرهم مع المسترشد بالله فقدحوا في الراشد ووافقهم على ذلك أصحاب المناصب ببغداد إِلا اليسير لأنهم كانوا يخافونه ، وكان قد قبض بعضهم وصادر بعضاً واتفقوا على ذمه ، فتقدم السلطان بخلعه وإقامة من يصلح فخلع وقطعت خطبته في بغداد في ذي القعدة وسائر البلاد وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً وقتله الباطنية على ما نذكر. ان شاء الله تعالى .

ذكر خلافة المقتفي لأمر اللّه

لما قطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطان جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير علي بن طراد وصاحب المخزن

وغيرهما فيمن يصلح أن يلي الخلافة فقال الوزير أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح ، قال من هو؟ قال : من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل ، فتقدم إليهم بعمل محضر في خلع الراشد فعملوا محضراً ذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الأموال ، وأشياء تقدح في الإمامة ثم كتبوا فتوى ما تقول : العلماء فيمن هذه صفته هل يصلح للامامة أم لا ؟ فأفتوا أن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً . فلما فرغوا من ذلك أحضروا القاضي أبا طاهر بن الكرخي فشهدوا عنده بذلك ، فحكم بفسقه وخلعه وحكم بعده غيره ولم يكن قاضي القضاة حاضراً فإنه كان عند أتابك زنكي بالموصل ، ثم إن شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد بن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه ، فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير

شرف الدين الزينبي وصاحب المخزن البقشلاني وغيرهما وأمر بإحضار الأمير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي يسكن فيه فأحضر وأجلس في الميمنة ودخل السلطان إليه والوزير وتحالفا ، وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذي الحجة ولقب المقتفي لأمر الله قيل سبب اللقب ، إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يلي الخلافة بستة أيام وهو يقول له إن هذا الأمر يصير إليك فاقتف بي فلقب بذلك ، ولما استخلف سيرت الكتب الحكمية بخلافته إلى سائر الأمصار واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي ، فأرسل إلى الموصل وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين الزينبي ابن عم الوزير وأعاده إلى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن وجرت الأمور على أحسن نظام ، وبلغني أن السلطان مسعوداً أرسل إلى الخليفة المقتفي لأمر الله في تقرير إقطاع يكون لخاصته ، فكان جوابه إن في الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة ، فلينظر السلطان ما يحتاج إِليه من يشرب هذا الماء ويقوم به فتقررت القاعدة على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله ، فأجاب إلى ذلك ، وقال السلطان لما بلغه قوله : لقد جعلنا في الخلافة رجلاً عظيماً والمقتفي عم الراشد هو والمسترشد ابنا المستظهر وليا الخلافة ، وكذلك السفاح والمنصور أخوان ، وكذلك المهدي والرشيد أخوان ، وكذلك الواثق والمتوكل أخوان ، وأما ثلاث إخوة ولوا الخلافة ، فالأمين والمأمون والمعتصم وهم أولاد الرشيد

والمكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد والراضي والمتقي والمطيع بنوالمقتدر، وأما أرلجعة أخوة ولوها فالوليد وسليمان وهشام ويزيد بنو عبد الملك بن مروان لا يعرف غيرهم ، وحين استقرت الخلافة للمقتفي أرسل اليه الراشد بالله رسولاً من الموصل مع رسول أتابك زنكي وكان كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري ، فأحضر في الديوان وسمعت رسالته وحكى لي والدي عنه قال : لما حضرت الديوان قيل لي تبايع أمير المؤمنين ؛ فقلت أمير المؤمنين عندنا في الموصل وله في أعناق الخلق بيعة متقدمة . وطال الكلام وعدت إلى منزلي ، فلما كان الليل جاءتني امرأة عجوز سراً واجتمعت بي وأبلغتني رسالة عن المقتفي لأمر الله مضمونها عتابي على ما قلته واستنزالي عنه فقلت غداً أخدم خدمة يظهر أثرها ، فلما كان الغد حضرت إلى الديوان وقيل لي في تعين البيعة ،فقلت : أنا رجل فقيه قاضي ولا يجوز لي أن أبايع إِلا أن يثبت عندي خلع المتقدم . فأحضروا الشهود وشهدوا عندي في الديوان

بما أوجب خلعه ، فقلت : هذا ثابت لا كلام فيه ولكن لا بد لنا في هذه الدعوى من نصيب لأن أمير المؤمنين قد حصل له خلافة الله في أرضه والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ونحن بأي شيء نعود. فرجع الأمر إلى الخليفة فأمر أن يعطي أتابك زنكي صريفين ودرب هارون ، وجرى ملكاً وهي من خاص الخليفة ويزداد في ألقابه وقال هذه قاعدة لم يسمع بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيب من خاص الخليفة ، وكانت بيعة كمال الدين سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، ولما عاد كمال الدين الشهرزوري سير على يد المحضر الذي عمل بخلع الراشد فحكم به قاضي القضاة الزينبي بالموصل وكان عند أتابك زنكي .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة عزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد ، وعاد إلى بغداد وقام بداره معزولًا ووزر من بعده كمال الدين أبو البركات بن سلمة الدركزيني وهو من خراسان ، وفيها ثار العيارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها ، وفتكوا في البلد ونهبوا الأموال طاهراً وكثر الشر فقصد الشحنة شارع دار الرقيق وطلب العيارين ، فثار عليه أهل المحال الغربية فقاتلهم وأحرق الشارع فاحترق فيه خلق كثير ونقل الناس أموالهم إلى الحريم الظاهري فدخله الشحنة ونهب منه مالاً كثيراً ثم وقعت فتنة ببغداد بين أهل باب الأزج وبين أهل المأمونية وقتل بينهم جماعة ثم اصطلحوا ، وفيها سار قراسنقر في عساكر كثيرة في طلب الملك داود بن السلطان محمود ، فأقام السلطان مسعود ببغداد ولم يزل قراسنقر يطلب داود حتى أدركه عند مراغة ، فالتقيا وتصافا

واقتتل العسكران قتالاً عظيماً فانهزم داود وأقام قراسنقر بأذربيجان ، وأما داود فإنه قصد خوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم ، فبلغت عدتهم نحو عشرة آلاف فارس فقصد تستر وحاصرها ، وكان عمه الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد بواسط فأرسل إلى أخيه السلطان مسعود يستنجده فأمده بالعساكر ، لسار إلى داود وهو يحاصر تستر فتصافا فانهزم سلجوق شاه . وفيها توفي محمد بن حمويه أبو عبد الله الجويني وهو من مشايخ الصوفية المشهورين وله كرامات كثيرة ورواية الحديث وتوفي أيضاً محمد بن عبد الله بن أحمد بن حبيب العامري الصوفي مصنف شرح الشهاب وأنشد لما احتضر :

ها قد مددت يدي اليك فردها بالعفو لا بشماتة الأعداء

وتوفي أيضاً أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الفراوي الصاعدي راوي صحيح مسلم عن عبد الغافر الفارسي وطريقه اليوم أعلى الطرق واليه الرحلة من الشرق والغرب وكان فقيهاً مناظراً ظريفاً يخدم الغرباء بنفسه وكان يقال الغراوي ألف راوي رحمه الله ورضي عنه .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود

في هذه السنة في المحرم ، أذن السلطان مسعود للعساكر التي عنده ببغداد بالعود إلى بلادهم لما بلغه أن الراشد بالله قد فارق أتابك زنكي من الموصل ، فإنه كان يتمسك بالعساكر عنده خوفاً أن ينحدر به إلى العراق فيملكه عليه ، فلما أراد أن يأذن للأمير صدقة بن دبيس صاحب الحلة زوجة ابنته تمسكا به وقدم على السلطان مسعود جماعة من الأمراء الذين حاربوه مع الملك داود منهم البقش السلاحي وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همدان فرضي عنهم وأمنهم وولى البقش شحنكية بغداد فعسف الناس وظلمهم ، وكان السلطان مسعود بعد تفرق العساكر عنه قد بقي معه ألف فارس ، وتزوج الخليفة فاطمة أخت السلطان مسعود في رجب والصداق مائة ألف دينار ، وكان الوكيل في قبول النكاح وزير الخليفة علي بن طراد الزينبي والوكيل عن السلطان وزيره الزركزيني ، ووثق السلطان حيث صار الخليفة وصدقة بن دبيس بن صدقة صهريه ، وحيث سار الراشد بالله من عند زنكي الأتابك والله أعلم .

ذكر عز ل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان

في هذه السنة في جمادى الأولى هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين الله العلوي صاحب مصر ، وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكان نصرانياً أرمنياً فتمكن في البلاد واستعمل الأرمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والأرمن الذين

ولاهم وطمعوا فيهم ، فلم يكن في أهل مصر أنف من ذلك إلا رضوان بن الريحيي فانه لما ساءه ذلك وأقلته جمعاً كثيراً وقصد

القاهرة فسمع به بهرام فهرب إلى الصعيد من غير حرب ولا قتال وقصد مدينة أسوان ، فمنعه واليها من الدخول إليها وقاتله فقتل السودان من الأرمن كثيراً فلما لم يقدر على الدخول الى أسوان أرسل إلى الحافظ يطلب الأمان فأمنه ، فعاد إلى القاهرة فسجن بالقصر فبقي مدة ثم ترهب وخرج من الحبس . وأما رضوان فإنه وزر للحافظ ولقب بالملك الأفضل وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك ، ثم فسد ما بينه وبينه الحافظ فعمل الحافظ في إخراجه فثار الناس عليه منتصف شوال في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وهرب من داره وتركها بما فيها ، فنهب الناس منها ما لا يحد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس ونقل ما بقي في دار رضوان إلى قصره وأما رضوان فسار يريد الشام يستنجد الأتراك ويستنصرهم فأرسل إليه الحافظ الأمير بن مصال ليرده بالأمان والعهد أنه لا يؤذيه فرجع إلى القاهرة فحبسه الحافظ عنده في القصر ، وقيل إنه توجه إلى الشام وهو الصحيح ، وقصد صرخد فوصل إليها في ذي القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار إلى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ومعه عسكر ، فقاتل المصريين عند باب النصر وهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام ثلاثة أيام فتفرق عنه كثير ممن معه فعزم على العود إلى الشام ، فأرسل إليه الحافظ الأمير ابن مصال فرده وحبسه عنده في القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فأقام في القصر إلى سنة ثلاث وأربعين ، فنقب الحبس وخرج منه ، وقد أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل إلى الجيزة فحشد

وجمع المغاربة وغيرهم ، وعاد إلى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الأقمر فأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالاً ليفرقه على عادتهم ، فانهم كانوا إذا وزروا وزيراً أرسلوا إليه عشرين ألف دينار ليفرقها ، فأرسل الحافظ عشرين ألف دينار فقسمها ، وكثر عليه الناس وطلب زيادة فأرسل إليه عشرين ألف دينار ،ففرقها ، فتفرق الناس وخفوا عنه ، فإذا الصوت قد وقع وخرج إليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقاتلوهم ، فقام يركب فقدم إليه بعض أصحابه فرساً ليركبه فلما أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله ، وحمل رأسه إلى الحافظ فأرسله إلى زوجته فوضع في حجرها فألقت به ، وقالت : هكذا يكون الرجال ولم يستوزر الحافظ أحداً وباشر الأمور بنفسه إلى أن مات .

ذكر فتح المسلمين حصن وادي ابن الأحمر من الفرنج

وفي هذه السنة في رجب سار عسكر دمشق مع مقدمتهم الأمير تراوش إلى طرابلس الشام فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان ، أيضاً خلق كثير ، فلما سمع القمص صاحبها بقربهم من ولايته سار إليهم في جموعه وحشوده فقاتلهم وانهزم الفرنج ، وعادوا إلى طرابلس في صورة سيئة قد قتلت فرسانهم وشجعانهم ، فلما عادوا نهب المسلمون من أعمالهم أكثرها وحصروا حصن وادي ابن الأحمر وضيقوا عليه فملكوها عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وسبوا الحريم والذرية وأسر الرجال ، فاشتروا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون إلى دمشق سالمين والله أعلم .

ذكر حصار زنكي مدينة حمص

في هذه السنة في شعبان سار أتابك زنكي إلى مدينة حمص وقدم إليها حاجبه صلاح الدين محمد الباغيسياني وهو أكبر أمير معه ، وكان ذا مكر وحيل أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلموها إِليه . فوصل إليها وفيها معين الدين أنزو هو الوالي عليها والحاكم فيها وهو أيضاً أكبر أمير بدمشق وحمص أقطاعه ، كما سبق ذكره ، فلم ينفذ فيه مكره ، فوصل حينئذ زنكي إليها وحصرها وعاودا مراسلة أنز في التسليم غير مرة تارة بالوعد وتارة بالوعيد واحتج بأنها ملك صاحبه شهاب الدين وأنها بيده أمانة ولا يسلمها الا عن غلبة ، فأقام عليها إلى العشرين من شوال ورحل عنها من غير بلوغ غرض إلى بعرين فحصرها وكان منه ومن الفرنج ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة في شوال سار أتابك زنكي من ،حمص كما ذكرناه وحصر قلعة بعرين وهي للفرنج تقارب مدينة حماة وهي من أمنع الحصون وأحصنها ، فلما نزل عليها قاتلها وزحف اليها فجمع الفرنج فارسيهم وراجلهم ، وساروا في قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم إلى أتابك زنكي ليرحلوه عن بعرين ، فلم يرحل وصبر لهم إلى أن وصلوا اليه فلقيهم وقاتلهم أشد قتال وصبر الفريقان ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم ، فحصرهم المسلمون ومنع أتابك زنكي عنهم كل شيء

حتى الأخبار ، فكان من به منهم لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ، ثم إن القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين ، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم المحامي عنها ، وأن المسلمين ليس لهم نية إلا قصد البيت المقدس ، فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم وكان منهم ما نذكره . وأما زنكي فإنه جدَّ في قتال الفرنج ، فصبروا وقنَت عليهم الميرة والذخيرة فإنهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا يعتقدون أن أحداً يقدر عليهم ، بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد بالشام فلما قلَّت الذخيرة أكلوا دوابهم وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون إلى بلادهم ، فلم يجبهم إلى ذلك فلما سمع بقرب ملك الروم من الشام واجتماعه بمن بقي من الفرنج أعطى لمن في الحصن الأمان وقرر عليهم تسليم الحصن ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا وسلَّموا اليه فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم ، وكان لا يصلحهم شيء من الأخبار البتة فلهذا سلموه وكان زنكي في مدة مقامه عليهم فتح المعرة وكفرطاب من الفرنج ، فكان أهلها وأهل سائر الولايات التي بينها وبين حلب وحماة مع أهل بعرين في الخزي لأن الحرب بينهم قائمة على ساق ، والنهب والقتل لا يزال بينهم ، فلما ملك أمن الناس وعمرت البلاد وعظم دخلها وكان فتحاً مبيناً

ومن رآه علم صحة قولي ومن أحسن الأعمال ما عمله زنكي مع أهل المعرة ، فإن الفرنج لما ملكوها كانوا قد أخذوا أملاكهم ، فلما فتحها زنكي الآن حضر من بقي من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها فقالوا إن الفرنج أخذوا كل ما لنا والكتب التي للأملاك فيها فقال : اطلبوا دفاتر جلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه ، ففعلوا ذلك ، وأعاد على الناس أملاكهم وهذا من أحسن الأفعال وأعدلهم .

ذكر خروج ملك الروم من بلاده إلى الشام

قد تقدم أن الفرنج أرسلوا إلى ملك القسطنطينية يستصرخون به ويعرفونه ما فعله زنكي فيهمٍ ويحرضونه على لحاق البلاد قبل أن تملك ولا ينفعه حينئذ المجيء ، فتجهز وسار مجدا فابتدأ وركب البحر وسار إلى مدينة أنطاكية وهى له على ساحل البحر فأرسى

فيها وأقام ينتظر وصول المراكب التي فيها أثقاله وسلاحه ، فلما وصلت سار عنها الى مدينة نيقية فحصرها وأن أصحابها صالحوه على مال يؤدونه اليه ، وقيل بل ملكها . وسار عنها إلى مدينة أذنة ومدينة المصيصة ، وهما بيد ابن ليون الأرمني صاحب قلاع الدروب فحصرهما وملكهما . ورحل إلى عين زربة فحصرها وملكها عنوة . وملك تل حمدون ، وحمل أهله إلى جزيرة قبرس وعبر ميناء الإسكندرية . وخرج إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة وضيق على أهلها وبها صاحبها الفرنجي ريمند، فترددت الرسل إليهم ومشوا بينهم فتصالحا . ورحل عنها إلى بغراس ودخل منها إلى بلد ابن ليون الأرمني فبذل له ابن ليون أموالًا كثيرة ودخل في طاعته والله أعلم .

ذكر عدة حوادث

قي هذه السنة رابع وعشرين في أيار ظهر بالشام سحاب أسود وأظلمت له الدنيا وصار الجو كالليل المظلم ثم طلع بعد ذلك سحاب أحمر كأنه النار أضاءت له الدنيا وهبت ريح عاصفة ألقت كثيراً من الشجر ، وكان أشد ذلك بحوران ودمشق، وجاء بعده مطر شديد وبرد كبار. وفيها عاد مؤيد الدين أبو الفوارس ، المسيب بن علي بن الحسين المعروف بابن الصوفي من صرخد إلى دمشق وكان قد أخرج هو وأهله من دمشق إلى صرخد فبقوا فيها إلى الآن وعادوا وولي أبو الفوارس الرياسة بدمشق وحكم فيها حكماً ماضياً وكان ذا رياسة عظيمة ومروءة ظاهرة . فيها كثرت الأمراض ببغداد وكثر الموت فجأة بأصفهان وهمذان . وفيها سار أتابك ز نكي إلى دقوقا فحضرها وملكها بعد أن قاتل على قلعتها قتالاً

شديداً . وفيها توفي أبو سعيد أحمد بن محمد بن ثابت الخجندي رئيس الشافعية بأصفهان وتفقه على والده ودَرس بالنظامية بأصفهان .

وتوفي أبو القاسم هبة الله بن أحمد بن عمر الحريري ومولده يوم عاشوراء سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وهو آخر من روى عن أبي الحسن زوج الحرة وقد روى الخطيب أبو بكر بن ثابت عن زوج الحرة أيضاً وكانت وفاة الخطيب سنة ثلاث وستين وأربعمائة .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

ذكر ملك أتابك زنكي حمص وغيرها من عمل دمشق

وفي هذه السنة في المحرم وصل أتابك زنكي إلى حماة وسار منها إلى بقاع بعلبك فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق ، ورساله مستحفظ بانياس وأطاعه ، وهو أيضاً لصاحب دمشق وسار إلى حمص فحصرها وأدام قتالها ، فلما نازل ملك الروم حلب رحل عنها إلى سلمية فلما انجلت حادثة الروم على ما ذكرناه ، عاود منازلة حمص وأرسل إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أمه ليتزوجها واسمها زمرد خاتون ابنة جاولي وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك وير التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادي شقرا ونهر بردى ، فتزوجها ، وتسلَّم حمص مع قلعتها وحملت الخاتون إليه في رمضان وإنما حمله على التزوج بها ما رأى من تحكيمها في دمشق فظن أنه يملك البلد بالاتصال إِليها فلما تزوجها خاب أمله ولم يحصل على شيء فأعرض عنها .

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين

قد ذكرنا ، سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ،خروج ملك الروم من بلاده وشغله بالفرنج وابن ليون ، فلما دخلت هذه السنة وصل إلى الشام وخافه الناس خوفاً عظيماً وقصد بزاعة فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب ، فمضى جماعة من أعيان حلب إلى أتابك زنكي وهو يحاصر حمص فاستغاثوا به واستنصروه ، فسير معهم كثيراً من العساكر فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها ، ثم إِن ملك الروم قاتل بزاعة ونصب عليها منجنيقات وضيق على من بها فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب

، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وأسر وسبى ، وكان عدة من جرح فيها من أهلها

خمسة آلاف وثمانمائة نفس ، وتنصَّر قاضيها وجماعة من أهلها نحو أربعمائة نفس وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى ، فقيل لهم إن جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا المنارات فدخنوا عليهم وهلكوا في المغاير ، ثم رحلوا إلى حلب من الغد في خيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب فقاتلوهم قتالاً شديداً فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم ، وعادوا خاسرين ، وأقاموا ثلاثة أيام فلم يروا فيها طمعاً فرحلوا إلى قلعة الأثارب فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها تاسع شعبان ، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا ، فلما سمع الأمير أسوار بحلب ذلك ، رحل فيمن عنده من العسكر إلى الأثارب فأوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الأسرى والسبي وعادوا إلى حلب . وأما عماد الدين زنكي فإنه فارق حمص وسار إلى سلمية فنازلها وعبر ثقله الفرات إلى القرة ، وأقام جريدة ليتبع الروح ويقطع عنهم الميرة ، وأما الروم فإنهم قصدوا شيزر فانها من أمنع الحصون وإنما حصروها لأنها لم تكن لزنكي فلا يكون له في حفظها اهتمام ، وانما كانت للأمير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، فنازلوها وحصروها ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً ، فأرسل صاحبها إلى زنكي يستنجده ، فسار إليه فنزل على نهر العاصي بالقرب منها بينها وبين حماة ، وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به

منهم ، ثم انه أرسل إلى ملك الروم يقول له : إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوا منها الى الصحراء حتى نلتقي فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وان ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها . ولم يكن له بهم قوة وانما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه . ، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بمصافقته وهونوا أمره عليه فلم يفعل ، وقال : أتظنون أن ليس له من العسكر إلا ما ترون إنما هو يريد أن تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له . وكان زنكي يرسل أيضاً إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه . ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً . فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها في رمضان ، وكان مقامه عليها أربعين يوماً وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار أتابك زنكي يتبع ساقة العسكر فظفر بكثير ممن تخلف منهم وأخذ جميع ما

تركوه . ولما كان الفرنج على براعة أرسل زنكي القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى السلطان مسعود يستنجده ويطلب العساكر فمضى إلى بغداد وأنهى الحال إلى السلطان وعرَّفه عاقبة الإهمال وأنه ليس بينه وبين الروم إلا أن تملك حلب ، وينحدروا مع الفرات إلى بغداد فلم يجد عنده حركة فى ضع انساناً من أصحابه يوم جمعة فمضى إلى جامع القصر ومعه جماعة من زنود العجم وأمرهم أن يثور بهم إذا طلع الخطيب المنبر ويصيح ويصيحون معه واالسلاماه وادين محمداه ويشق ثيابه ويرمي عمامته من رأسه ويخرج إلى دار السلطان والناس معه يستغيثون كذلك ، ووضع إنساناً آخر يفعل بجا"ح السلطان مثله . فلما صد الخطيب المنبر ، قام ذلك الرجل ولطم رأسه وألقى عمامته وشق ثوبه وأولئك معه وصاحوا فبكى الناس وتركوا الصلاة ولعنوا السلطان وساروا من الجامع يتبعون الشيخ إلى دار السلطان يستغيثون ويبكون ، فخاف السلطان فقال : احضروا إِلي ابن الشهرزوري . فأحضر . فتال كمال الدين : لقد خفت منه مما رأيت . فلما دخلت قال لي : أي فتنة أثرت ، فتلت ما فعلت شيئاً ، أنا كنت في بيتي ، وإنما الناس يغارون للدين والإسلام ويخافون عاقبة هذا التواني . فقال : أخرج إلى الناس ففرقهم عنا واحضر غداً واختر من العسكر ما تريد . ففرقت الناس وعرفتهم ما أمر به من تجهيز العساكر وحضرت الغد إلى الديوان فجهزوا إلي طائفة عظيمة من الجيش فأرسلت إلى نصير الدين بالموصل أعرفه ذلك وأخوفه من العسكر إن طرقوا البلاد فإنهم

يملكونها . فأعاد الجواب يقول : البلاد لا شك مأخوذة فلأن يأخذها المسلمون خير من أن يأخذها الكافرون . فشرعنا في التحميل ، لاذا قد وصلني كتاب أتابك زنكي من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويأمرني بأن لا أستصحب من العسكر أحداً، فعرفت السلطان ذلك فقال العسكر : قد تجهزت ولا بد من الغزاة إلى–الشام . فأعد الجهد وبذل الحزم له ولأصحابه حتى عاد العسكر ، ولما عاد ملك –الروم عن شيزر مدح الشعراء أتابك زنكي . وأكثروا فمن ذلك ما قاله المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي من جملة قصيدة أوّلها :

- بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم

ومن جملتها هذه الأبيات :

- ألم تر أن كلب الروم لما تبين أنه الملك الرحيم

¬ فجاء فطبق الفلوات خيلاً كأن الجحفل الليل البهيم

ـ وقد نزل الزمان على رضاه ودان لخطبه الخطب العظيم

ـ فحين رميته بك في خميس تيقن أن ذلك لا يدوم

ـ وأبصر في المفاضة منك جيشاً فاحرب لا يسير ولا يقيم

ـ كأنك في العجاج شهاب نور توقد وهو شيطان رجيم

ـ أراد بقاء مهجته فولى وليس سوى الحمام له حميم

وهى قصيدة طويلة . ومن عجيب ما يحكى ، أن ملك الروم لما عزم على حصر شيزر سمع من بها ذلك . فقال الأمير مرشد بن علي صاحبها وهو يفتح مصحفاً : اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني اليك . فتوفي بعد أيام .

ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الأمراء

لما فارق الراشد بالله أتابك زنكي من الموصل سار نحو أذربيجان ، فوصل مراغة وكان الأمير منكبرس صاحب فارس ونائبه بخوزستان الأمير بوزابه والأمير عبد الرحمن طغايرك خلخان والملك داود بن السلطان محمود مستشعرين من السلطان مسعود خائفين منه ، فتجمعوا ووافقوا الراشد على الاجتماع لتكون أيديهم واحدة ويردوه الى الخلافة فأجابهم إلى ذلك . إلا أنه لم يجتمع معهم ، ووصل الخبر إلى السلطان

مسعود وهو ببغداد باجتماعهم ، فسار عنها في شعبان نحوهم فالتقوا ببنجن كشت ، فاقتتلوا فهزمهم السلطان مسعود وأخذ الأمير منكبرس أسيراً فقتل بين يديه صبراً وتفرق عسكر مسعود في النهب واتباع المنهزمين ، وكان بوازبة وعبد الرحمن ظغايرك علي نشز من الأرض ، فرأيا السلطان مسعوداً وقد تفرق عسكره عنه فحملا عليه وهو في قلة فلم يثبت لهما وانهزم . وقبض بوازبة على جماعة من الأمراء منهم : صدقة بن دبيس صاحب الحلة ، ومنهم ولد أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان ، وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم . وتركهم عنده فلما بلغه قتل صاحبه منكبرس قتلهم أجمعين وصار العسكران منهزمين ، وكان هذا من أعجب الاتفاق . وقصد السلطان مسعود أذربيجان ، وقصد الملك داود همدان ، ووصل الراشد بعد الوقعة فاختلفت آراء الجماعة ، فبعضهم أشار بقصد العراق والتغلب عليه وبعضهم أشار باتباع السلطان مسعود للفراغ منه ، فإن ما بعده يهون عليه ، وكان بوزابة أكبر الجماعة فلم ير ذلك وكان غرضه المسير إلى بلاد

فارس وأخذها بعد قتل صاحبها منكبرس قبل أن يمتنع من بها عليه ، فبطل عليهم ما كانوا فيه وسار إليها فملكها ، وصارت له مع خوزستان ، وسار سلجوق شاه ابن السلطان محمد إِلى بغداد ليملكها ، فخرج إليه البقش الشحنة بها ونظر الخادم أمير الحاج وقاتلوه ، وكان عاجزاً مستضعفاً ، ولما قتل صدقة بن دبيس أقر السلطان مسعود الحلة على أخيه محمد بن دبيس وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا عنتر المقتول يدبره أمره ، ولما كان البقش شحنة بغداد يقاتل سلجوق شاه ثار العيارون ببغداد ونهبوا الأموال وقتلوا الرجال وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون أرباب الأموال طاهراً ويأخذون منهم ما يريدون ويحملون الأمتعة على رؤوس الجمالين ، فلما عاد الشحنة قتل منهم وصلب ، وغلت الأسعار وكثر الظلم منه وأخذ المستورين بحجة العيارين ، فجلا الناس عن بغداد إلى الموصل وغيرها من البلاد .

ذكر قتل الراشد باللّه

لما وصل الراشد بالله إلى همذان وبها الملك داود بوزابة ومن معهما من الأمراء والعساكر ، على ما تقدم ذكره ، ثم سار إِلى خوزستان مع الفلك داود ومعهما خوارزم شاه ، فقاربا الجزيرة ، فسار السلطان مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود إلى فارس وعاد خوارزم شاه إلى بلاده ، بقي الراشد وحده فلما أيس من عساكر العجم ، سار إلى أصفهان فلما كان الخامس والعشرون من رمضان ، وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة . وكان في أعقاب مرض برىء منه ودفن بظاهر أصفهان بشهرستان فركب من معه فقتلوا الباطنية ولما وصل الخبر

إلى بغداد جلسوا للعزاء به في بيت النوبة يوماً واحداً وكان أبيض ، أشقر ، حسن اللون ، مليح الصورة ، مهيباً ، شديد القوة والبطش . قال أبو بكر الصولي : الناس يقولون إن كل سادس يقوم بأمر الناس من أول الإسلام لا بد من أن يخلع وربما قتل . قال : فتأملت ذلك فرأيته كما قيل ، فان أول من قام بأمر هذه الأمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم ، فخلع ، ثم معاوية وبزيد ابنه ومعاوية بن يزيد ومروان وعبد الملك بن مروان وعبدالله بن الزبير ، فخلع ، في عبدالله وأخوه سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابنا عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فخلع وقتل . .ثم لم ينتظم أمر بني أمية ، ثم ولي السفاح

والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والأمين ، فخلع وقتل ، والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين ، فخلع وقتل . والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر ، فخلع ، ثم رد ، ثم قتل . ثم القاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع والطائع ، فخلع . ثم القادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد ، فخلع وقتل . قلت : في هذا نظر لأن البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان جعله بعده لا وجه له والصولي إنما ذكر الى أيام المطيع لله ومن بعد ذكره غيره .

ذكر حال ابن بكران العيار

في هذه السنة في ذي الحجة ، عظم أمر ابن بكران العياد ببغداد والعراق وكثرت أتباعه وصار يركب طاهراً في جمع من المفسدين ، وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد ، فأمر أبا القاسم ابن أخيه حامي باب الأزج أن يشتد إليه ويلبس سراويل فتوة منه ليأمن من شره ، وكان ابن بكران يكثر المقام بالسوادة ومعه رفيق له يعرف بابن البزاز فانتهى أمرهما إلى أنهما أراد أن يضربا باسمهما سكة في الأنبار ، فأرسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي إلى الوالي أبي الكرم ، وقالا : إما أن تقتل ابن بكران وإما أن نقتلك ؟ فأحضر ابن أخيه وعرفه ما جرى وقال له : إما أن تختارني ونفسك وإما أن تختار ابن بكران ؟ فقال : أنا أقتله . وكان لابن بكران عادة يجيء في بقض الليالي إلى ابن أخي ابي الكرم فيقيم في داره ويشرب عنده ، فلما جاء على عادته وشرب أخذ أبو القاسم سلاحه ووثب به فقتله ، وأراح الناس من شره ، ثم

أخذ بعده يسير رفيقه ابن البزاز ، وصلب وقتل معه جماعة من الحرامية فسكن الناس واطمأنوا وهدأت الفتنة .

ذكر قتل الوزير الدركزيني ووزارة الخازن

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره العماد أبي البركات بن سلمة الدركزيني واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الحسين الخازن وكان الكمال شهماً شجاعاً عادلاً ، نافذ الحكم ، حسن السيرة أزال المكوس ورفع المظالم وكان يقيم مؤنة السلطان . ووظائفه وجمع له خزائن كثيرة وكشف أشياء كثيرة كانت مستورة يخان فيها ويسرق ، فثقل على المتصرفين وأرباب الأعمال فأوقعوا بينه وبين الأمراء لا سيما قراسنقر صاحب أذربيجان ، فإنه فارق السلطان وأرسل يقول : إما أن تنقذ رأس الوزير

وأما خدمنا سلطاناً آخر ؛ فأشار من حضر من الأمراء بقتله وحذروه فتنة لا تتلافى . فقتله على كره منه . وأرسل إلى قراسنقر فرضي وكانت وزارته سبعة أشهر . وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ووزَر بعده أبو العز طاهر بن محمد البزرجردي وزير قراسنقر ولقب عز الملك وضاقت الأمور على السلطان مسعود واستقطع الأمراء البلاد بغير اختياره ولم يبق له شيء من البلاد البتة إلا اسم السلطنة لا غير .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ملك حسام الدين تمرتاش أيلغازي صاحب ماردين قلعة الهتاج من بلاد ديار بكر ، أخذها من بعض بني مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها وهذا آخر من بقي فسبحان الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا يتطرق إليه النقض ولا التغيير . وفيها انقطعت كسوة الكعبة ، لما ذكرناه ، من الاختلاف فقام بكسوتها رامشت التاجر الفارسي ، كساها من الثياب الفاخرة بكل ما وجد إليه سبيل فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصرية وهو من التجار المسافرين إلى الهند كثير المال . وفيها توفيت زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارق زوج السلطان مسعود ، وتزوج بعدها سفري ابنة دبيس بن صدقة في جمادى الأولى ، وتزوج ابنة قاروت وهو من البيت السلجقي ، الا أنه كان لا يزال يعاقر الخمر ليلاً ونهاراً فلهذا سقط اسمه وذكره.

وفيها قتل السلطان مسعود بن البقش السلاحي شحنة بغداد ، وكان قد ظلم الناس وعسفهم وفعل ما لم يفعله غيره من الظلم ، فقبض عليه وسيره إلى تكريت فسجنه بها عند

مجاهد الدين بهروز، ثم أمر بقتله ، فلما أرادوا قتله ألقى بنفسه قي دجلة فغرق فأخذ رأسه وحمل إلى السلطان ، وجعل السلطان شحنة العراق مجاهد الدين بهروز فعمل أعمالاً صالحة منها : أنه عمل مسناة النهروان وأشباهها ، وكان حسن السيرة كثير الإحسان ، وفيها درس الشيخ أبو منصور بن الرزاز بالنظامية ببغداد وفيها أرسل الخليفة إلى أتابك زنكي في إطلاق قاضي القضاة الزينبي ، فأطلق وانحدر الى بغداد فخلع عليه الخليفة وأقره على منصبه . وفيها كان بخراسان غلاء شديد طالت مدته وعظم أمره حتى أكل الناس الكلاب والسنانير وغيرهما من الدواب وتفرق أكثر أهل البلاد من الجوع . وفيها توفي طغان أرسلان صاحب بدليس وأرزن من ديار بكر وولي بعده ابنه فرني واستقام له الأمر . وفيها في شهر صفر جاءت زلزلة عظيمة بالشام

والجزيرة وديار بكر والمؤصل والعراق وغيرها من البلاد فخربت كثيراً منها وهلك تحت الهدم عالم كثير . وفيها توفي أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي الفتح الدينوري الفقيه الحنبلي ببغداد وكان ينشد كثيراً هذه الأبيات :

تمنيت أن تمسي فقيهاً منظراً بغير عياء والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقة تلقيتها فالعلم كيف يكون

وفيها توفي محمد بن عبد الملك بن عمر أبو الحسن الكرخي ومولده سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وكان فقيهاً محدّثاً سمع الحديث بكرخ وأصفهان وهمذان وغيرها .

وفي شعبان منها توفي القاضي أبو العلاء صاعد بن الحسين بن إسماعيل بن صاعد وهو ابن عم القاضي أبى سعيد وولي القضاء بنيسابور بعد أبى سعيد .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه

في هذه السنة في المحرم سار السلطان سنجر إلى خوارزم شاه وهو ابن ملكشاه ، محارباً لخوارزم شاه اتسز بن محمد وسبب ذلك أن سنجر بلغه أن اتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له وأن هذا الأمر قد ظهر على كثير من أصحابه وأمرائه فأوجب ذلك قصده ،وأخذ خوارزم شاه فجمع عساكره وتوجه نحوه فلما قرب من خوارزم شاه في عساكره خرج خوارزم شاه إليه في عساكره ، فلقيه وعني كل واحد منهما عساكره وأصحابه ، فاقتتلوا فلم يكن للخوارزمية قوة بالسلطان فلم يثبتوا وولوا منهزمين وقتل منهم خلق كثير ومن جملة القتلى ولد لخوارزم شاه فحزن عليه أبوه حزناً عظيماً ووجد وجداً شديداً وملك سنجر خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه محمد ورتب له وزيراً وأتابكاً وحاجباً . وقرر قواعده وعاد إِلى مرو في جمادى الآخرة من هذه السنة ، فلما فارق خوارزم عائداً انتهز خوارزم شاه الفرصة فرجع إِليها وكان أهلها يكرهون العسكر السنجري ويؤثرون عودة خوارزم شاه ، فلما عاد أعانوه على ملك البلد ففارقها سليمان شاه واختلفا بعد الاتفاق ففعل خوارزم شاه في خراسان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ما نذكره إن شاء الله .

ذكر قتل محمود صاحب دمشق وملك أخيه محمد

في هذه السنة في شوال قتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين صاحب دمشق على فراشه غيلة ، قتله ثلاثة من غلمانه خواصه وأقرب الناس إليه قي

خلوته وجلوته ، وكانوا ينامون عندَه فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا فنجا أحدهم وأخذ الآخران فصلبا . وكتب معين الدين أنز من دمشق الى أخيه جمال الدين

محمد بن بوري صاحب بعلبك وهو بها بصورة الحال واستدعاه ليملك بعد أخيه ، فحضر في أسرع وقت فلما دخل البلد جلس للعزاء بأخيه وحلف له الجند وأعيان الرعية وسكن الناس وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنز مملوك جده وزاد في علو مرتبته وصار هو الجملةْ والتفصيل ، وأقطعه بعلبك وزوجه بأمه ، وكان أنز خيِّراً، عاقلاً ، حسن السيرة ، فجرت الأمور عنده على أحسن نظام .

ذكر ملك زنكي بعلبك

في هذه السنة في ذي القعدة سار عماد الدين أتابك زنكي بن آقسنقر إلى بعلبك فحصرها ثم ملكها ، وسبب ذلك أن محموداً صاحب دمشق لما قتل كانت والدته زمرد خاتون عند أتابك زنكي بحلب قد تزوجها فوجدت لقتل ولدها وجداً شديداً وحزنت عليه ، وأرسلت إلى زنكي وهو بديار الجزيرة تعرفه الحادثة وتطلب منه أن يقصد دمشق ويطلب بثأر ولدها . فلما وقف على هذه الرسالة بادر في الحال من غير توقف ولا تريث وسار مجداً ليجعل ذلك طريقاً إلى ملك البلد وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق ، فاحتاط من بها واستعدوا واستكثروا من الذخائر ولم يتركوا شيئاً مما يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد في تحصيله ، وأقاموا ينتظرون وصوله إليهم فتركهم ، وسار إلى بعلبك وقيل كان السبب في ملكها أنها كانت لمعين الدين أنز كما ذكرناه ، وكان له جارية يهواها فلما تزوج أم جمال الدين سيرها إلى بعلبك فلما سار زنكي إلى الشام عازماً على قصد دمشق سير إلي أنز يبذل له البذول العظيمة ليسلم اليه دمشق ، فلم يفعل وسار أتابك إلى بعلبك فوصل اليها في العشرين من ذي الحجة في السنة ، فنازلها

في عساكره وضيق عليها وجد في محاربتها ونصَّب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عدداً ترمي ليلاً ونهاراً ، فأشرف من بها على الهلاك وطلبوا الأمان وسلموا اليه المدينة وبقيت القلعة وبها جماعة من الشجعان شجعان الأتراك فقاتلهم ، فلما أيسوا من معين ونضير طلبوا الأمان فأمنهم ، فسلموا اليه القلعة فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم ، وأمر بصلبهم فصلبوا ، ولم ينج إلا القليل . فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وخافه غيرهم . وحذروه ، لا سيما أهل دمشق فقالوا : لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء فازدادوا نفوراً وجدَّوا في محاربته ، ولما ملك زنكي بعلبك أخذ الجارية التي كانت لمعين الدين أنز بها فتزوجها بحلب فلم تزل بها الى أن قتل فسيرها ابنه نور الدين

محمود إلى معين الدين أنز وير كانت أعظم الأسباب في المودة بين نور الدين وبين أنز والله أعلم .

ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعوده عنها

وفي هذه السنة جمع أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان عساكر كثيرة وسار طالباً بثأر أبيه الذي قتله بوزابة في المصاف المقدم ذكره ، فلما قارب السلطان مسعوداً أرسل إليه يطلب منه قتل وزيره الكمال ، فقتله كما ذكرناه ، فلما قتل سار قراسنقر إلى بلاد فارس فلما قاربها تحصَّن بوزابة منه في القلعة البيضاء ووطىء قراسنقر البلاد وتصرف فيها ، وليس له دافع ولا مانع إلا أنه لم يمكنه المقام وملك المدن التي في فارس فسلم إلى الملك سلجوق شاه بن السلطان محمود ، وقال له : هذه البلاد لك فاملك الباقي . وعاد إلى أذربيجان فنزل حينئذ بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين وهزم سلجوق شاه وملك البلاد وأسر سلجوق شاه وسجن في قلعة بفارس .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في صفر توفي الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد معزولاً ببغداد ، وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه ، ودفن في داره ، ثم نقل إلى الكوفة فدفن في مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكان فيه تشيع وهو كان السبب في عمل المقامات الحريرية وكان رجلاً عاقلًا ، شهماً ، ديناً ، خيراً وزر للخليفة المسترشد وللسلطان محمود وللسلطان مسعود ، وكان يستقيل من الوزارة فيجاب إلى ذلك ، ثم يخطب إليها فيجب كارهاً . وفيها قدم السلطان مسعود بغداد في ربيع الأول وكان الزمان شتاء

، وصار يشتَي بالعراق ويصيف بالجبال ، ولما قدمها أزال المكوس وكتب الألواح بإزالتها ووضعت على أبواب الجوامع والأسواق وتقدم أن لا ينزل جندي في دار عامي من أهل بغداد إِلا بإذن فكثر الدعاء له والثناء عليه وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان . وفيها في صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد وكان أشدها بالشام وكانت متوالية عشر ليال ، كل ليلة عشر دفعات ، فخرب كثير من البلاد ولا سيما حلب . فإن أهلها لما كثرت عليهم فارقوا البلاد والبيوت وخرجوا إلى الصحراء وعدوا ليلة واحدة جاءتهم ثمانين مرة ولم تزل

بالشام تتعاهدهم من رابع صفر إلى تاسع عشرة وكان معها صوت وهزة شديدة . وفيها أغار الفرنج على أعمال بانياس ، فسار عسكر دمشق في أثرهم فلم يدركوهم فعادوا . وفيها توفي أبو القاسم طاهر بن طاهر الشجاعي النيسابوري بها ، ومولده سنة ست وأربعين وأربعمائة وكان إماماً في الحديث مكثراً عالي الإسناد .

وتوفي عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر بن محمد بن يوسف أبو القاسم بن أبي الحسين البغدادي بها ومولده سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة . وعبد العزيز بن عثمان بن إبراهيم بن محمد الأسدي البخاري كان قاضي بخارى، وكان من الفقهاء أولاد الأئمة حسن السيرة . وتوفي محمد بن شجاع بن أبي بكر بن علي بن إبراهيم اللفتواني الأصفهاني بأصفهان في جمادى الآخرة ، ومولده سنة ست وتسعين وأربعمائة وسمع الحديث الكثير بأصفهان وبغداد وغيرهما .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائه

ذكر حصار أتابك زنكي دمشق

في هذه السنة حصر أتابك زنكي دمشق مرتين : فأما المرة الأولى فإنه سار اليها في ربيع الأولى من بعلبك بعد الفراغ من أمرها وتقرير قواعدها لاصلاح ما تشعث منها ليحاصرها فنزل البقاع ، وأرسل إِلى جمال الدين محمد صاحبها يبذل إليه بلداً يقترحه ليسلم إليه دمشق ، فلم يجبه إلى ذلك فرحل وقصد دمشق فنزل على داريا ثالث عشر ربيع الأول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكي وعاد الدمشقيون منهزمين فقتل كثير منهم . ثم تقدم زنكي إلى الموصل فنزل .هناك ولقيه جمع كثير من جند دمشق وأحداثها ورجالة الغوطة ، فقاتلوه فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف فقتل فيهم وأكثر وأسر كذلك ومن سلم عاد جريحاً . وأشرف البلد ذلك اليوم على الأخذ وأن يملك ، لكن عاد زنكي وأمسك عند عشرة أيام وتابع الرسل إلى صاحب دمشق وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد فمال إلى أن يسلم ، وامتنع غيره من أصحابه من ذلك ، وخوفوه عاقبة فعله وأن يفعل ويغدر كما فعل بأهل بعلبك فلما لم يسلموا إليه . عاد القتال والزحف ثم إن جمال الدين محمداً صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان وطمع زنكي حينئذ في البلد وزحف إليه زحفاً شديداً طناً منه أنه ربما يقع بين المقدمين والأمراء خلاف فيبلغ به الغرض وكان ما أمله بعيداً ، فلما مات جمال الدين ولي بعده مجير الدين أبق ولده وتولى ترتيب دولته بعين الدين أنز فلم يظهر لموت أبيه أثر مع أن عدوهم على باب المدينة ، فلما رأى أنز أن زنكي لا يفارقهم ولا يزول عن

حصرهم راسل الفرنج واستدعاهم إلى نصرته وأن يتفقوا على دفع زنكي عن دمشق وبذل لهمَ بذولًا وأن يحضر بانياس ويأخذها ويسلمها وخوفهم من زنكي إن ملك دمشق فعلموا صحة توله وعلموا أنه ان ملكها لا يبقي لهم معه بالشام مقام وأن الفرنج اجتمعوا وعزموا

على المسير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكي ،فحين علم زنكي بذلك سار إلى حوران خامس رمضان عازماً على قتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقيين . فلما سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم فلما رآهم كذلك عاد إلى حصر دمشق ونزل بعذرا شماليها ، سادس شوال ، فأحرق عدة قرى س المرج والغوطة ورحل عائداً إلى بلاده . ووصل الفرنج إلى دمشق واجتمعوا بصاحبها ، وقد رحل زنكي فعادوا فسار معين الدين أنز إلى بانياس في عسكر دمشق وهي في طاعة زنكي ، كما تقدم ذكره ، ليحصرها ويسلمها إلى الفرنج . وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بجمعة إلى مدينة صور للإغارة على بلاده فصادفه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق نجدة لصاحبها على زنكي ، فاقتتلا فانهزم المسلمون وأخذوا إلى بانياس فقتل ونجا من سلم إلى بانياس وجمعوا معهم كثيراً من البقاع وغيرها وحفظوا القلعة فنازلها معين الدين فقاتلهم وضيق عليهم ومعه طائفة من الفرنج فأخذها وسلمها إلى الفرنج . وأما الحصر الثاني لدمشق فان أتابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد إلى بعلبك ليدفع عنها من يحصرها فأقام هناك فلما ، عاد عسكر دمشق بعد أن ملكوها وسلموها إلى الفرنج فرق أتابك زنكي عسكره على الإغارة على حوران وأعمال دمشق وسار هو جريدة مع خواصه ، فنازل دمشق سحراً ولم يعلم به أحد من أهلها ، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتج البلد واجتمع العسكر والعامة على السور وفتحت الأبواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه ، فلم يمكن زنكي عسكره من الإقدام

في القتال لأن عامة عسكره كانوا قد تفرقوا في البلاد والنهب والتخريب ، وإنما قصد دمشق لئلا يخرج منها عسكر إلى عسكره وهم متفرقون فلما اقتتلوا ذلك اليوم قتل بينهم جماعة . ثم أحجم زنكي عنهم وعاد إلى خيامه ورحل إلى مرج راهط وأقام ينتظر عودة عسكره فعادوا إليه وقد ملأوا أيديهم من الغنائم لأنهم طرقوا البلاد وأهلها غافرون ، فلما اجتمعوا عند. رحل بهم عائداً إلى بلادهم .

ذكر ملك زنكي شهرزور وأعمالها

في هذه السنة ملك أتابك زنكي شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني وكان حكمه نافذاً على قاصى التركمان ودانيهم وكلمته لا تخالف ، يرون طاعته فرضاً فتحامى الملوك قصده ولم يتعرضوا

لولايته لأنها منيعة كثيرة المضايق فعظم شأنه وازداد جمعه ، وأتاه التركمان من كل بم عميق ، فلما كان هذه السنة سير إليه أتابك زنكي عسكراً فجمع أصحابه ولقيهم فتصافوا واقتتلوا فانهزم قبجاق واستبيح عسكره . وسار الجيش الأتابكي في أعقابهم فحصروا الحصون والقلاع فملكوها جميعها وبذلوا الأمان لقبجاق ، فصار إليهم وانخرط في سلك العساكر ولم يزل هو وبنوه في خدمة البيت على أحسن قضية إلى بعد سنة ستمائة بقليل وفارقوها .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة جرى بين أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله وبين الوزير شرف الدين على ابن طراد الزينبي منافرة وسببها : أن الوزير كان يعترض الخليفة في كل ما يأمر به فنفر الخليفة من ذلك . فغضب الوزير ، ثم خاف فقصد دار السلطان في سميرية وقت الظهر ودخل إليها واحتمى بها ، فأرسل إليه الخليفة في العود إلى منصبه فامتنع ، وكانت الكتب تصدر باسمه واستنيب قاضي القضاة الزينبي . وهو ابن عم الوزير وأرسل الخليفة إلى دار السلطان رسلًا في معنى الوزير ، فأرخص له السلطان في عزله فحينئذ أسقط اسمه من الكتب وأقام بدار السلطان؛ ثم عزل الزينبي من النيابة ، وناب سديد الدولة بن الأنباري . وفيها قتل المقرب جوهر وهو من خدم السلطان سنجر وكان قد حكم في دولته وجميعها من جملة أقطاعه ، ومن مماليكه عباس صاحب الري وكان سائر عسكر السلطان يخدمونه ويقفون ببابه وكان قتله بيد الباطنية وقف له جماعة منهم بزي النساء واستغثن به فوقف يسمع كلامهم فقتلوه . فلما قتل جمع صاحبه العساكر وقصد

الباطنية فقتل منهم وأكثر وفعل بهم ما لم يفعله غيره ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرب بلادهم إلى أن مات.

وفيها زلزلت كنجة وغيرها من أعمال أذربيجان وأران إلا أن أشدها كان بكنجة

فخرب منها الكثير وهلك عالم لا يحصون كثرة قيل كان الهلكى مائتي ألف وثلاثين ألفاً وكان من جملة الهلكى ابنان لقراسنقر صاحب البلاد وتهدمت قلعة هناك لمجاهد الدين بهروز وذهب له فيها من الذخائر والأموال شيء عظيم . وفيها شرع مجاهد الدين بهروز في عمل النهروانات سكر سكراً عظيماً يرد الماء إلى مجراه الأول ، وحفر مجرى الماء القديم وخرق اليه مجراة تأخذ من ديالى ثم استحال بعد ذلك وجرى الماء ناحية من

السكر وبقي السكر في البر لا ينتفع به أحد ، ولم يتعرض أحد إلى رده إلى مجراه عند السكر إلى وقتنا هذا . وفيها انقطع الغيث ببغداد والعراق ولم يجىء غير مرة واحدة قي أذار ثم انقطع ووقع الغلاء وعدمت الأقوات . وفيها في جيادي الآخرة دخل الخليفة بفاطمة خاتون بنت السلطان مسعود وكان يوم حملها إلى دار الخليفة يوماً مشهوداً غلقت بغداد عشرة أيام وزينت وتزوج السلطان مسعود بابنة الخليفة. وفيها في ربيع الأول توفي القاضي أبو الفضل يحيى ابن قاضي دمشق المعرف بالزكي .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

ذكر مسير جهاردانكي إلى العراق وما كان منه

في هذه السنة أمر السلطان ومسعود الأمير اسماعيل المعروف بجهاردنكي والبقش كون خر ، بالمسير إلى خوزستان وفارس وأخذها من بوزابة وأطلق لهم نفقة على بغداد فساروا فيمن معهما إلى بغداد، فمنعهم مجاهد الدين بهروز عن دخلوها فلم يتبلوا منه فأرسل إلى المعابر ، فخسفها وغرقها وجد في عمارة السور وسد باب الظفرية وباب كلواذي وأغلق باقي الأبواب وعلق عليها السلاسل وضرب الخيام للمقاتلة . فلما علم بذلك عبرا بصرصر وقصدا الحلة فمنعا فقصدا واسط ، فخرج إليهم الأمير طرنطاي وتقاتلوا فانهزم طرنطاي ودخلوا واسطاً فنهبوها ونهبوا بلد فرسان والنعمانية ولفهم طرنطاي إلى حماد بن أبي الخير صاحب البطيحة ووافقهم عسكر البصرة وفارق اسماعيل والبقش عسكرهما وصارا مع طرنطاي فضعف أولئك فصار الى تستر واستشفع اسماعيل إلى السلطان فعفا عنه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة وصل رسول من السلطان سنجر ومعه بردة النبي صلى الله عليه وسلم والقضيب ،وكان قد أخذا من المسترشد فأعادهما الآن إلى المقتفي .

وفي هذه السنة توفي أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وأرانية بمدينة أردبيل وكان مضره السل ، وكان من مماليك الملك طغرل وسلمت .أذربيجان وأرانية إلى الأمير جاولي الطغرلي وكان قراسنقر عظم محله على سلطانه وخافه السلطان . وفيها كان بين أتابك زنكي وبين داود سقمان بن

أرتق صاحب حصن كيفا حرب شديدة وانهزم داود وملك زنكي من بلاد. قلعة بهمرد وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل . وفيها ملك

الإسماعيلية حصن مصيات بالشام وكان واليه مملوكاً لبني منقذ أصحاب شيزر فاحتالوا عليه ومكروا به حتى صدوا إليه وقتلوه وملكوا الحصن وهو بأيديهم إلى الآن . وفيها توفي سديد الدولة بن الأنباري واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصر محمد بن محمد بن جبير وكان قبل ذلك أستاذ الدار . .

وفيها توفي برتقش بازدار صاحب قزوين . وفيها في رجب ظفر ابن الداتشمند صاحب ملطية وغيرها من تلك النواحي بجمع من الروم فقتلهم وغنم ما معهم . وفيها في رمضان سارت طائفة من الفرنج فخرج إِليهم العسكر الذي بعسقلان فقاتلهم فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيراً فعادوا منهزمين . وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن ، ولما فرغت درس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل وحضره أرباب المناصب وسائر الفقهاء . وفيها في رجب مات القاضي أبو بكر بن محمد بن عبد الباقي الأنصاري قاضي المارستان عن نيف وسبعين سنة ، وله الإسناد والعوالي ، وكان عالماً بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها من علوم الأوائل وهو آخر من حدث ني الدنيا عن اسحاق البرمكي والقاضي أبي بكر الطبري وأبي طالب العشاري وأبي محمد الجوهري وغيرهم .

وتوفي الإمام الحافظ أبو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل الأصفهاني عشر ذي الحجة ومولده سنة تسع وخمسين وله التصانيف المشهورة . وتوفي يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن يعقوب الهمذاني من أهل بروجرد وسكن مرو وتفقه على أبي اسحاق الشيرازي ، وروى

الحديث واشتغل بالرياضيات والمجاهدات ووعظ ببغداد فقام إليه متفقه يقال له ابن السقاء . وسأله وآذاه في السؤال . فقال اسكت اني أشم منك ريح الكفر . فسافر الرجل إلى بلد الروم وتنصر . وفيها مات أبو القاسم على بن أفلح الشاعر الشهور .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة

ذكر أنهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا ومُلْكهم ما وراء النهر

ثم ذكر أصحابُ التواريخ في هذه الحادثة أقاويلَ نحن نَذْكرها جميعَها للخروج من اختلافها وعدَّتها فنقول : في هذه السنة من المحرم ، وقيل في صفر، انهزم السلطان سنجر من الترك الكفار، وسَبب ذلك أنّ سنجراً كان قتلَ ابناً لخوارزم شاه أتسز بن محمد كما ذكرناه قبلُ ، فبعث خوارزم شاه إلى الخطا وهم بما وراء النهر– يطعمهم في البلاد ويروَّج عليهم أمرها، وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر، فساروا في ثلاثمائة ألف فارس ، وسار إليهم سنجر في عساكره فالتقوْا بما وراء النهر، واقْتتلوا أشد ضال وأنهزم سنجر وعساكره ، وقُتِل منهم مائة ألف قتيل منهم اثنا عشر ألفاً، كلهم صاحب عمامة ، وأربعة آلاف امرأة، وأسرت زوجة السلطان سنجر، وتم السلطان منهزماً إلى تِرمذَ، وسار منها إلى بلخ .

ولما انهزم سنجر، قصدَ خوارزم شاه مدينة مَرْو، فدخلها مُراغمةً للسلطان سنجر وقَتل بها وقبض على أبي الفضل الكرماني الفقيه الحنفي ، وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من أعيان البلد، ولم يزل السلطان سنجر مسعوداً إلى وقتنا هذا، لم تنهزم له راية، ولما تمت عليه هذه السنة الهزيمة أرسل إلى السلطان مسعود، وأذن له في التصرف في الري وما يجري معها على قاعدة أبيه السلطان محمد. وأمره أن يكون مقيماً فيها بعساكره بحيث إنْ دعَت حاجَةٌ استدْعاه لأجل هذه الهزيمة، فوصل عبّاس صاحب الري إلى بغداد

بعساكره ، وخدم السلطان مسعودا خدمة عظيمة، وسار السلطان الى الري امتثالًا لأمر عمه سنجر.

وقيل إِن بلاد تركستان ، وهي كاشْغَر(1) وبلادَ بلاساغون (2) وخُتَن (3) وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ما وراء النهر، كانت بيد الملوك الخانية الأتراك ، وهم مسلمون من نسل أفراسياب التركي ، إِلّا أنهم مختلفون ، وكان سبب إسلام جذه شبق قراخاقان أنه رأى في منامه كأن رجلاً نزَل مِنَ الصماء فقال بالتركية ما معناه ، أسلِمْ تَسْلم فيِ الدنيا والأخرة، فأسلمَ في منامه ، وأصبح فأظهرَ إسلامه . فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن شبق ، ولم يزل الملك بتلك الناحية في أولاده إلى ارسلان بن علي بن موسى بن شبق ، فخرج على قدرخان فانتزع الملكَ منه ، فقتل قدرخان كما ذكرناه سنة أربع وتسعين وأربعمائة ، وأعاد الملك إلى أرسلان خان ، وثبت قدمه ، وخرج خوارج فاستصرخ السلطانَ سنجر فَنَصَرَهُ ، وأعَادَهُ إلى ملكه ، وكان من جنده نوع من الأتراك يقالُ لهم القارغلية والأتراك الغزية الذين نَهَبُوا خراسان على ما نذكره إن شاء الله ، وهم نوعان : نوع يقال لهم أجق وأميرهم طوطى بن داديك ، وقوم يقال لهم برق وأميرهم يقال له قرغوت بن عبد الحميد، فحسن الشريف الأشرف بن محمد بن أبي شجاع العلوي السمرقندي لولد أرسلان خان المعروف بنصر خان طَلَبَ الملك من أبيه ، وأطعمه فسمع محمد بن خان الخبر، فقتل الابن والشريف الأشرف ، وجرت بين أرسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دَعَتهمْ إلى العصيان عليه ، وانتزع الملك منه ، فعاود الاستعانة بالسلطان سنجر، فعَبَر جَيْحُون بعساكره ، سنة أربعِ وعشرين وخمسمائة –

وكان بينهما مُصاهرةٍ فوصل إلى سَمَرْقَنْد، وهرب القارغلية من بيْن يدَيه .

واتفق أن السلطان سنجر خرج إلى الصِد، فرأى خيالة ، فقبض عليهم فقررهم قأقروا أن أرسلان خان وضعهم على قَتْله ، فعاد إلى سَمرْقَند فحصرَ أرسلان خان بالقلعة فملكها،وأخذه أسيراً وسيَّره إلى بَلْخ ، فمات بها وقيل بل غَدَر به سنجر واستضعفه ، فملك البلد مِنْه فأشاعَ عنه ذلك ، فلمَّا ملك سَمَرْقَنْد استعمل عليها بعده قلج طمغاج أبا المعالي الحسن بن علىّ بن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين ، وكان من أعيان بيت الخانية إلى الآن ،إلا أن أرسلان خان اطرحه ،فلما وُلي سمرقند، وكان هذا حسن ابن

(1) كاشغر: بالتقاء الساكنين : مدينة في وسط بلاد الترك ، يسافر إليها من سمرقند .

(2) بلاساغون : بلد عظيم من ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر.

(3) ختن : بضم أوله وفتح ثانيه : بلد وولاية دون كاشغر ووراء يوزكَند، وهي معدودة من بلاد تركستان .

أخت سنجر، لم تطل أيامه فمات عن قليل ، فأقام سنجر مقامه الملك محمود بن أرسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخالأ، وهو ابن الذي أخذ منه سنجر سمرقند، وكان هذا محمود ابن أخت سنجر، وكان قَبْل ذلك سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد وصل الأعور، وهو كوخان الصينيّ ، إلى حدود كاشغر في عدد كثير لا يعلمهم إلا الله ، فاستعذ له صاحب كاشغر، وهو الخان أحمد بن الحسن ، وجَمَعَ جنوده فخرَجَ إليه . والتقوا فاقْتتلوا ، وانهزم الأعور الصينيّ وقُتِل كثيرٌ مِنْ أصحابه ، ثم إنه مات ، فقام مقامه كوخان الصينيّ ، وكوبلسان الصين لقب لأعظم ملوكهم وخان لقب الملوك الترك ، فمعناه : أعظم الملوك ، وكان يلبس لِبْسة ملوكهم من المقنعة والخمار، وكان مانوياً، ولما خرج من الصين إلى تركستان انضاف إليه الأتراك الخطا، وكانوا قد خرجوا قَبْله من الصين وهم في خدمة الخانية أصحاب تركستان ، وكان أرسلان خان محمد بن سليمان يسير على ستة عشر ألف خركاة، ومنزلهم على الدروب التي بينه وبين الصين ، يمنعون أحداً مِنَ الملوك أنْ يتطرّق إلى بلاده ، وكان لهم على ذلك جرايات واقطاعات ، فاتفق أنه وجد عليهم في بعض السنين فمنعهم عن نسائهم لئلا يتوالدوا، فعظُم عليهم ولم يعرفوا وجهاً يقصدونه ، وتحيروا فاتفق أن اجتاز بهم قفل عظيم فيه الأموال الكثيرة والأمتعة– النفيسة ، فأخذوه وأحضروا التُجار، وقالوا لهم : إن كنتم تريدون أموالكم فعرفونا بلداً كثير المرْعَى فسيحاً يسعنا.ولمجمعُ أموالنا ، فاتفق رأيُ التجار على بلد بلاساغون ، فوصفوه لهم ، فأعادوا إليهم أموالهم ،

وأخذوا الموكَّلين ، الذين كانوا بهم لمنعهم عن نسائهم وكتَفوهم وأخذوا نساءهم ، وساروا إلى بلاساغون ، وكان أرسلان خان يغزوهم وُيكْثِر جهادهم ، فخافوه خوفاً عظيماً فلمّا طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصيني ،انضافوا إليه أيضاً، فعَظُمَ شانهم وتضاعف جَمْعهم وملكوا بلاد تركستان ، وكانوا إذا ملكوا المدينة لا يغيرون على أهلها شيئاً ، بل يأخذون من كل بيت ديناراً من أهل البلاد وغيرها من القرى، وأما المَزروعات وغير ذلك فلأهلها وكل من أطاعهم من الملوك شد في وسطه شِبْه لوح فضة، فتلك علامة من أطاعهم ، ثمّ ساروا إلى بلاد ما وراء النَّهر، فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد من حدود خجندة، في رمضان سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، واقتتلوا ، فانهزم الخاقان محمود بن محمد وعاد إلى سمرقند فعظم الخطب على أهلها واشتدَ الخوف والحزن ، وانتظروا البلاء صباحاً ومساء،– وكذلك أهل بخارى وغيرهما من بلاد من وراء النهر.

وأرسل الخاقان محمود إلى السلطان سنجر يستمده وينهي إليه ما لقي المسلمون ، ويحثّه على نصرتهم ، فجمع العساكر، فاجتمع عنده ملوك خراسان صاحب سجستان والغور، وملك غزنة ، وملك مازندران وغيرهم ، فاجتمع إليه أكثر من مائة ألف فارس ، وبقي العرض ستة أشهر، وسار سنجر إلى لقاء الترك ، فعبروا إلى ما وراء النهر في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، فشكا إليه محمود بن محمد خان من الأتراك القارغليّة، فقصدهم سنجر فالتجؤوا إلى كوخان الصينيّ ومن معه من الكفار، وأقام سنجر بسمرقند، فكتب إليه كوخان كتاباً يتضمن الشفاعة في الأتراك القارغلية ، ويطلب منه أن يعفو عنهم ، فلم يشفَعه فيهم ، وكتب إليه يدعوه إلى الإسلام ويهدده إن لم يجب إليه ويتوعَّده بكثرة عساكره ، ووصفهم ، وبالغ في قتالهم بأنواع السلاح ، حتَّى قال : وإنّهم يشقّون الشعر بسهامهم ، فلم يرض هذا الكتاب ، وزير السُّلطان ، طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ، فلم يصغِ إليه وسيّر الكتاب ، فلما قرىء الكتاب على كوخان أمر بنتف لحية الرّسول وأعطاه إبرة وكلّفه شق شعرة من لحيته ، فلم يقدر أن يفعل ذلك ، فقال : كيف يشقُ غيرك شعرةً بسهم وأنت عاجزٌ عَنْ شقِّها بإبرة، واستعذ كوخان للحرب ، وعنده جنود الترك والصّين والخطا وغيرهم ، وقصد السُلطان سنجر، فالتقى العسكران ، وكانا كالبحرين العظيمين بموضعٍ يقال له قطوان ، وطاف بهم كوخان ، حتى ألجأهم إلى واد يقال له ديرغم ، وكان على ميمنة سنجر الأمير قماج ، وعلى ميسرته ملك سجستان ، والأبطال وراءهم ،

فاقتتلوا خامس صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وكانت الأتراك القارغليّة الّذين هربوا من سنجر مِنْ أشدِّ النَاس قتالاً، ولم يكن ذلك اليوم مِنْ عسكر السلطان سنجر أحسن قتالاً من صاحب سجستان ، فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين فقُتِلَ مِنْهم ما لا يُحْس مِنْ كثرتهم ، واشتمل وادي ديرغم على عشرة لا آلاف من القتلى والجرحى .

ومضى السُّلطان سنجر مُنهزماً ، وأسر صاحب سجستان ، والأمير قماج ، وزوجة السُّلطان سنجر، وهي ابنة ارسلان خان ، فأطلقهم ، والحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري ، الفقيه الحنفي المشهور ، ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه ، ولا أكثر ممن قُتِلَ فيها بخراسان . ،

واستقرت دولة الخطا والترك والكفار بما وراء النهر، وبقي كوخان إلى رجب من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، فمات فيه ، وكان جميلًا حسن الصورة لا يلبس إلا الحرير

الصيني، ، له هيبة عظيمة على أصحابه ، ولم يسلَط أميراً على أقطاع ، بل كان يعطيهم من عنده ، ويقول : متى أخذوا الأقطاع ظلموا، وكان لا يقدم أميراً على أكثر من مائة فارس حتّى لا يقدر على العصيان عليه ، وكان ينهي أصحابه عن الظلم ، وينهي عن السكر ويعاقب عليه ، ولا ينهي عن الزَنا ولا يقبحه.

وملك بعده ابنة له ، فلم تَطُل، مدتها، حتّى ماتت ، فملك بعدها أمُّها زوجة كوخان وابنه محمد، وبقي ما وراء النهر بِيَدِ الخطا، إلى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستّمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان

قد ذكرنا قبل قصد السُّلطان سنجر خوارزم ، وأخذها من خوارزم شاه أتسن ، وعوده إليها، وقتل ولد خوارزم شاه وأنه هو الذي راسل الِخطا وأطمعهم في بلاد الِإسلام ، فلما لقيهم السلطان سنجر وعاد منهزماً سار خوارزم شاه إلى خراسان ، فقصد سرخس في ربيع الأول من السَنة ، فلما وصل اليها، لقيَ الإمام أبا محمد الزياديّ وكان قد جمع بين الزهد والعلم ، فأكرمه خوارزم شاه إكراماً عظيماً ، ورحل من هناك إلى مرو الشاهجان ، فقصده الإمام أحمد الباخرزي ، وشفع في أهل مرو، وسأل أن لا يعترض إليهم أحد من العسكر، فأجابه إلى ذلك ، ونزل بظاهر البلد ، واستدعى أبا الفضل الكرماني الفقيه وأعيان أهلها ، فثار عامّة مرْو، وقتلوا بعض أهل خوارزم شاه ، وأخرجوا أصحابه من البلد، وأغلقوا أبوابه ، واستعدّوا للامتناع ! فقاتلهم خوارزم شاه ، ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الأول من السّنة، وقُتِلَ كثيراً من أهلها، وممن

قُتِلَ ابراهيم المروزي ، الفقيه الشافعيّ ، وعلي بن محمد بن أرسلان ، وكان ذا فنون كثيرة من العلمٍ ، وقُتِلَ الشريف علي بن اسحاق الموسوي ، وكان رأس فتنة وملقح شر! وقُتل كثيرا من أعيان أهلها، وعاد إلى خوارزم ، واستصحب معه علماء كثيرا من أهلها، ومنهم : أبو الفضل الكرمانيّ وأبو منصور العبادي والقاضي الحسين بن محمد الارسابندئ ، وأبو محمد الخرقي الفيلسوف ، وغيرهم . .

ثم سار في شوال من السنة إلى نيسابور، فخرج إليه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهادها وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور ما فعل بأهل مرْو فأجابهم إلى ذلك ، لكنه استقصى في البحث عن أموال أصحاب السلطان ، فأخذها وقطع خطبة السلطان سنجر

أول ذي القعدة ، وخطبوا له فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر، وذكر خوارزم شاه صاح الناس وثاروا وكادت الفتنة تثور والشر يعود جديداً، وإنما منع الناس ذوو الرأي والعقل ، نظراً في العاقبة ، فقطعت إلى أول المحرم ، سنة سبع وثلاثين ، فأعيدت خطبة السلطان سنجر، ثم سير خوارزم شاه جيشاً الى أعمال بيهق فأقاموا بها يقاتلون أهلها خمسة أيام ، ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد، وعملوا بخراسان أعمالاً عظيمة ومنع السلطان من مقاتلة أتسز خوارزم شاه لأجل قوة الخطا بما وراء النهر ومجاورتهم وملك خوارزم شاه هذه البلاد وغيرها من خراسان .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ملك أتابك زنكي بن آقسنقر مدينة الحديثة ، ونقل من كان بها من آل مهراش إلى الموصل ورتب أصحابه فيها . وفيها أيضا خطب لزنكي بمدينة آمد، وصار صاحبها في طاعته – وكان قبل ذلك موافقاً لداود على قتال زنكي – فلما رأى قوة زنكي صار معه .

وفيها عزل مجاهد الدين بهروز عن شحنكية بغداد، وَوليها قزل أمير أخور– وهو منْ مماليك السلطان محمود – وكان له بروجرد والبصرة، فأضيف إليه شحنكية بغداد، ثم وصل السلطان إلى بغداد فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ما ساءه ، فأعاد بهروز إلى الشحنكية فتاب كثير منهم ، ولم ينتفع الناس بذلك ، لأن ولد الوزير وأخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين ، فلم يقدر بهروز على منعهم .

وفيها تولى عبد الرحمن طغابرك حجبة السلطان ، واستولى على المملكة وعزل الأمير تبر الطغرلي عَنها، وآل أمره إلى أنْ مشى في ركاب عبد الرحمن .

وفيها توفي إبراهيم السهاوي مقدم الإسماعيلية ، فأخرجه ولد عباس صاحب الري في تابوته .

وفيها حج كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن وعاد، وقد لبس ثيابُ الصُّوفية وتخلّى عن جميع ما كان عليه ، وأقام في داره مرعي الجانب محروس القاعدة .

وفيها وصل السلطان إلى بغداد، وكان الوزير الزيني بدار السّلطان – كما ذكرناه – فسأل السلطان أن يشفع فيه ليرده الخليفة إلى داره ، فأرسل السلطان وزيره إلى دار

الخلافة ، ومعه الوزير شرف الدين الزيني ، وشفع أن يعود إلى داره ، فأذن له في ذلك ، وأعاد أخاه إلى نقابة النقباء، فلزم الوزير داره ، ولم يخرج منها إلا إلى الجامع .

وفيها أغار عسكر أتابك زنكي من حلب على بلاد الفرنج ، فنهبوا ، وأهرقوا ، وظفروا بِسَرية الفرنج ، فقتلوا فيهم وأكثروا ، فكان عدد القتلى سبعمائة رجل .

وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق فسيّر السُّلطان مسعود سرية إليهم . من العسكر، فنهبوا علتهم وقتلوا من ظفروا به منهم ، وعادوا سالمين .

وفيها سير رجار الفرنجي ، صاحب صقلية ، أسطولاً إلى أطراف أفريقية ، فأخذوا مراكب سيرت من مصر إلى الحسن صاحب أفريقية ، وغدر بالحسن ، ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لأجل حمل الغلات من صقلية إِلى أفريقية، لأن الغلاء كان فيها شديداً والموت كثير.

وفيها توفي أبو القاسم عبد الوهاب بن عبد الواحد الحنبلي الدمشقي ، وكان عالماً.

وفيها توفي ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثي وزير أتابك زنكي ، وكان حسن السيرة في وزارته ، كريماً رئيساً .

وفيها توفى أبو محمد بن طاوس إمام الجامع بدمشق في المحرم ، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً

وفيها توفي أبو القاسم اسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث ، المعروف بابن السمرقندي ، ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وأربعمائة وكان مكثراً من الحديث عالي الرواية .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

ذكر ملك عماد الدين أتابك زنكي قلعة أشب وغيرها من الهكارية

في هذه السنة أرسل أتابك زنكي جيشاً إلى قلعة أشب – وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية ، وأمنعها ، وبها أموالهم وأهلهم – فحصروها وضيّقوا على من بها فملكوها، فأمر بإخرابها، وبناء القلعة المعروفة بالعمادية، عوضاً عنها – وكانت هذه القلعة العمادية حصناً عظيماً من حصونهم ، فخربوه لكبره ، لأنه كبير جداً، وكانوا يعجزون عن حفظه فخربت الآن أشب وعمرت العمادية ، وإنما سميت العمادية نسبة إِلى لقبه ، وكان نصير الدين جقر، نائبه بالموصل ، قد فتح اكثر القلاع الجبلية .

ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب

وفي هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلية إلى طرابلس الغرب ، فحصروها، وسبب ذلك أن أهلها في أيام الأمير الحسن صاحب أفريقية ، لم يدخلوا أبداً في طاعته ، ولم يزالوا مخالفين مشافقين له ، قد قدموا عليهم من بني مطروح مشايخ يدبرون أمرهم ، قلقا رآهم ملك صقلية كذلك ، جفز إليهم جيشاً، في البحر فوصلوا إليهم تاسع ذي الحجة، فنازلوا البلد وقاتلوه ، وعلّقوا الكلاليب في سوره ، ونقبوه ،فلما كان الغد، وصل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد فقوي أهل طرابلس بهم فخرجوا إلى الأسطول ، فحملوا عليهم حملة منكرة، فانهزموا هزيمة فاحشة، وقتل منهم خلقٌ كثيز، ولحق الباقون بالأسطول وتركوا الأسلحة والأثقال والدواب والآلات ، فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج إلى صقلية، فجهزوا أسلحتهم ، وتجهزوا إلى المغرب ، فوصلوا

إلى جيجل ، فلما رآهم أهل البلد هربوا إلى البراري والجبال ، فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها، وأخربوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة ، ثم عادوا .

في هذه السنة خرج حسن ، أمير الأمراء، على السلطان سنجر بخراسان .

وفيها توفي محمد بن دانشمند ، صاحب ملطية والثغر ، واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج أرسلان ، صاحب قُونية(1) وهو من السلجوقية .

وفيها خرج مِنَ الروم عسكر كثير إلى الشام ، فحصروا الفرنج بأنطاكية، فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم ، وأصلح حاله معه ، وعاد الى مدينته ، ومات في رمضان من هذه السنة . ثم إن ملك الروم ، بعد أن صالح صاحب انطاكية، سار إلى طرابلس فحصرها ، ثم سار عنها .

وفيها قبض السلطان مسعود على الأمير ترشك ، وهو من خواص الخليفة، وممن رثي عنده وفي داره ، فساء ذلك الخليفة، ثمّ أطلقه السلطان حفظاً لقلب الخليفة . وفيها كان بمصر وباء عظيم ، فهلك مِنْه أكثر البلاد .

(1) قونية : من اعظم بلاد الاسلام بالروم ، وبها وبأقَصرَى سكنى ملوكها .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

ذكر صلح الشهيد السلطان مسعود وأتابك زنكي

في هذه السنة وصل السلطان مسعود إلى بغداد، على عادته في كل سنة، وجمع العساكر وتجهّز لقصد أتابك زنكي ، وكان حقد عليه حقداً شديداً، وسبب ذلك أن أصحاب الأطراف ، الخارجين على السلطان مسعود، كانوا يخرجون عليه – على ما تقدم ذكره – فكان ينسب ذلك إلى أتابك زنكي ، ويقول هو الذي سعى فيه ، وأشار به ، لعلمه أنّهم كلّهم كانوا يصدرون عن رأيه ، فكان أتابك زنكي لا شك يفعل ذلك ، لئلا يخلو السلطان فيتمكّن منه ، ومن غيره.

فلما تفرغ السلطان هذه السنة، جمع العساكر ليسيروا إلى بلاده ، فسيّر أتابك يستعطفه ، ويستميله ، فأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد، فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار، يحملها الى السلطان ليعود عنه ، فحمل عشرين ألف دينار أكثرها عروض .

ثم تنقلت الأحوال بالسلطان إِلى أن احتاج إلى مداراة أتابك ، وأطلق له الباقي استمالةً له ، وحفظاً لقلبه ، وقعود السلطان عنه كان سببه حصانة بلاده ، وكثرة عساكره وأمواله .

ومن جيد الرأي ما فعله الشهيد في هذه الحادثة : فإنه كان ولده الأكبر سيف الدين غازي لا يزال عند السلطان سفراً وحضرا ، بأمر والده ، فأرسل إليه ثانية ، وأرسل إليه نائبه ، بها نصير الدين جقر، فيقول له ليمنعه عن الدخول الى الموصل والوصول إليه ، فهرب غازي وبلغٍ الخبر ولده ، فأرسل إليه يأمره بالعودة الى السُّلطان ولم يجتمع به وأرسل

معه رسولا إلى السلطان ، يقول له : ان ولدي هرب خوفاً من السلطان لمّا رأى تغيره علي ، وقد أعدته إلى الخدمة، ولم اجتمع به ، فإنه مملوكك ، والبلاد لك ، فحل

ذلك من السلطان محلاً عظيماً .

ذكر ملك أتابك بعض ديار بكر

وفي . هذه السنة ، سار أتابك زنكي إلى ديار بكر،–ففتح منها عدة بلاد وحصون ، فمن ذلك مدينة طنزة ، ومن ذلك مدينة أسعرد، ومدينة حيزان ، وحصن الدوق ، وحصن مطليس وحصن بانسبة ، وحصن ذي القرنين ، وغير ذلك مما لمْ يبلغ غيره هذه الأماكن ، وأخذ أيضاً من بلد ماردين ، مما هو بيد الفرنج ، حملين والموزر وتل موزر، وغيرها من حصون جوسلين ، ورتب أمور الجميع ، وخلى فيها من الاجناد من يحفظها، وقصد مدينة آمد وحانى فحصرهما، وأقام بتلك الناحية مصلحاً لما فتحه محاصراً لما لم يفتحه .

ذكر أمر العيارين ببغاد

وفي هذه السنة ، زاد أمر العيارين ، وكَثُر لأمنهم من الطلب ، بسبب ابن الوزير وابن قاورت ، أخي زوجة السلطان ، لأنهما كان لهما نصيبٌ من الذي يأخذه العيارون ، وكان النائب في شحنكية بغداد، مملوكاً اسمه أيلدكز، وكان صارماً مقداماً ظالماً، فحمله الإقدام إلى أن حضر عند السلطان ، فقال له السلطان :إن السياسة قاصرةٌ ، والناس قد هلكوا ، قال : يا سلطان العالم إذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك واخا امرتك ، فأي قدرة لي على المفسدين ، وشرح له الحال ، فقال له : الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا، وتصلبهما، فإنْ فعلت ، وإلّا صلبْتُك ، فأخذ خاتمه وخرج ، فكبس على ابن الوزير، فلم يجدْه فأخَذَ من كان عنده ، وكبس على ابن قاورت ، فأخذه وصلبه ، فأصبح الناس ، وهرب ابن الوزير،

وشاع الأمر ورُئي ابن قاورت مصلوباً، فهرب أكثرُ العيارين ، وقبض على من أقام ، وكفي الناس شرهم .

ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه

قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين ، مسير سنجر إلى خوارزم وملكه لها ،وعودُ أتسز خوارزم شاه إليها، وأخذها، وما كان منه بخراسان بعد ذلك ، فلما كان في هذه السنة، سار السلطان سنجر إلى خوارزم شاه ، فجمع خوارزم شاه عساكره ، وتحصّن بالمدينة ، ولم يخرج منها لقتال ، لعلمه أنه لا يقوى لسنجر، وكان القتل يجري بين الفريقين ، من وراء السور، فاتفق في يوم من بعض الأيام أن هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على

البلد من الجانب الغربي ، فلم يبقَ غير ملكه قهراً وعنوة، وكان مثقال التاجي هجم من الشرق ، فانهزم مثقال عند البلد، وبقي سنقر وحده في البلد، فقوي عليه خوارزم شاه أتسز، فأخرجه من البلد، وبقي سنجر وحده ، واشتدّ في حفظه ، فلما رأى السلطان قرة البلد ، وامتناعه ، عزم على العود الى مرْو، ولم يمكنه من غير قاعدة تستقر بينهما ، فاتفق أن خوارزم شاه أرسل رسلاً يبذل المال والطاعة ، والخدمة ، ويعود إلى ما كان عليه من الإنقياد، فأجابه إلى ذلك ، واصطلحا وعاد سنجر إلى مرْو، وأقام خوارزم شاه بخوارزم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة سيَّر أتابك زنكي عسكر إلى مدينة عانة، من أعمال الفرات فملكوها.

وفيها ، في المحرم ، توفي أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد الأنباطي ، الحافظ ببغداد، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

وفيها، توفي أبو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد الإسفرايني الواعظ من أهل اسفراين من خراسان ، وأقام مدة ببغداد يعظ ، وسار إلى خراسان ، فلما مات حضر الغزنوي عزاءه ببغداد، وبكى ، وأكثر فقال بعض أصحاب أبي الفتوح للغزنوي كلاماً أغلظ له فيه ، فلمّا قام الغزنوي ، لامه بعض تلامذته على حضور العزاء ، وكثرة البكاء، وقال له كنت مهاجرا لهذا الرجل ، فلما مات ، حضرت عزاءه ، وأكثرت البكاء، وأظهرت الحزن ، قال كنت أبكي على نفسي ! كان

يقال فلان وفلان ، فمن يعدم النظير أيقن بالرحيل ، وأنشد هذه الأبيات :

- ذَهَبَ المبرد وانْقَضَتْ أيّامهُ وِسينْقَضي بَعْدَ المبرد ثعلبُ
- بَيْتُ مِنَ الآداي أصبحَ نِصْفَهُ خرِباً وباقٍ نِصْفُه فسيخربُ
- فتزودوا أنْ تَكتبوا أنْفَاسَهُ إنْ كانتِ الأنفاسُ مما يكتبُ

وفيها ، توفي الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي ، في رمضان ، معزولاً ، ودفن بداره ، بباب الأزج ، ثم نُقِلَ إلى الحربية.

وفيها، توفي أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوي ، المفسر، و(زمخشر) ، إحدى قرى خوارزم .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

ذكر فَتْح الرَّها وغيرها من البلاد الجزرية

في هذه السنة ، سادس جمادى الآخرة، فتح أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة الرّها مِنَ الفرنج ، وفتح غيرها مِنْ حصونهم بالجزيرة ، أيضاً، وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة، وشرّهم قد استطار فيها ، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرّقة ، وكانت مملكتهم بهذه الديار، من قريب ماردين إلى الفرات ، مثل الرها وسروج والبيرة وسن ابن عُطَيْر وحملين والموزر والفرادي ، وغير ذلك ، وكانت هذه الأعمال مع غيرها مِمّا هو غرب الفرات ، لجوسلين ، وكان صاحب رأي الفرنج والمقدم على عسكرهم ، لما هو عليه من الشجاعة والمكر، وكان أتابك يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها، فيتعذّر عليه ملكها ، لما هي عليه من الحصانة ، فاشتغل بديار بكر، ليوهم الفرنج أنه غير متفرِّغ إلى قصد بلادهم ، فلما رأوه أنّه غير قادر على ترْك الأرتقية، وغيرهم من ملوك ديار بكر، حيث انه محارب لهم ، اطمأنوا ، وفارق جوسلين الرّها ، وعبر الفرات إلى بلاد الغربية ، فجاءت عيون أتابك إليه ، فأخبروه الخبر، فنادى في العسكر بالرّحيل ، وأن لا يتخلف عن الرّها أحد مِنْ غدِ يومِه ، وجمع الأمراء عنده ، وقال : قدِّموا الطعام ، وقال لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا مَنْ يطعن غداً معي بباب الرّها، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبي لا يعرف لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب ، فقال الأمر لذلك الصبي ، ما أنت في هذا المقام ، فقال أتابك دعه ، فوالله إنّي

أرى وجهاً لا يتخلف عني ، وسار والعساكر معه ، ووصل إِلى الرّها ، وكان هو أول من حمل على الفرنج ، وحمل ذلك الصبي ، وحمل فارس مِنْ خيالة الفرنج على أتابك عرضاً ، فاعترضه ذلك الأمير، فطعنه فقتله ، وسلم الشهيد، ونازل البلد، وقاتله ثمانية وعشرين يوماً، فزحف إليه عدة دفعات ، وقدم النقّابين ، فنقبوا سور البلد، ولج في

قتاله ، خوفاً من اجتماعِ الفرنج ، والمسير إليه ، واستنقاذ البلد منه ، فسقطت البدنة التي نقبها النقّابون ، وأخذ البلد عنوةً وقهراً، وحصر قلعته ، فملكها أيضاً، ونهب الناس الأموال ، وسبوا الذّرية ، وقتلوا الرجال ، فلمّا رأى أتابك البلد ، أعجبه ، ورأى أن تخريب مِثْله لا يجوز في السياسة، فأمر فنودي في العساكر بردُّ ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم ، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره ، لم يفقد منه شيء ، إِلا النادر، الذي أخذ ، وفارق من أخذه العسكر، فعاد البلد على حاله الأول ؛ وجعل فيه عسكراً يحفظه ، وتسلم مدينة سروج ، وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة، فإنّها حصينة منيعة، وعلى شاطىء الفرات ، فسار إليها وحصرها ، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها ، فبقي على حصارها إلى أن رحل عنها، ما نذكره ، إن شاء الله تعالى .

حكي أن بعض ، الحكماء بالأنساب والتواريخ ، قال : كان صاحب جزيرة صقلية ، قد أرسل سرية في البحر إلى طرابلس الغرب ، وتلك الأعمال ، فنهبوا وقتلوا، وكان بصقلية إنسان من العلماء المسلمين ، وهو من أهل الصَّلاح ، وكان صاحب صقلية يكرمه ، ويحترمه ، ويرجع إلى قوله ، وبقدمه على من عنده من القسوس والرهبان ، وكان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب ، ففي بعض الأيام ، كان جالساً في منظرة تشرف على البحر، وإذ قد أقبل مركبٌ لطيف ، وأخبره مَنْ فيه أنّ عسكره دخل بلاد الإسْلام ، وغنموا ، وقتلوا ، وظفروا ، وكان المسلم إلى جانبه وقد أغفى ، فقال له

الملك : يا فلان أما تسمع ما يقولون ، قال :لا ، قال : إنهم يخبرون بكذا وكذا ، أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها؟ فقال له كان غاب عنهم ، وشهد فتح الرها، وقد فتحها المسلمون الآن . فضحك منْه مَنْ كان هناك من الفرنج ، فقال الملك لا تضحكوا، فوالله ما يقول إلا الحق ، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها .

وحكى لي جماعة مِنْ أهل الدين والصلاح أنّ إنساناً صالحاً رأى الشهيد في النوم ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بفتح الرها.

ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين علي كوجك قلعة الموصل

قي هذه السنة في ذي القعدة ، قُتل نصير الدين جقر، نائب أتابك زنكي بالموصل ، والأعمال جميعها التي شرق الفرات ، وسبب قتله ، أنّ الملك ألب أرسلان ، المعروف

بالخفاجي ، ولد السلطان محمود، كان عند أتابك الشهيد، وكان يظهر للخلفاء، والسّلطان مسعود، وأصحابه بالأطراف ، ان هذه البلاد لهذا الملك ، وأنا نائبه فيها ، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود، ليخطب له بالسلطنة، ويملك البلاد باسمه . وكان هذا الملك بالموصل هذه السّنة ، ونصير الدين يقصده كل يوم ، ليقوم بخدمة إن عرضت له ، حسن له بعض المفسدين طلب الملك ، وقال له : إن قتلت نصير الدين ، ملكت الموصل وغيرها من البلاد ولا يبقى مع أتابك زنكي فارس واحد، فوقع هذا منه موقعاً حسناً، وظنه صدقاً، فلما دخل نصير الدين اليه ، وثب عليه . من عنده من أجناد أتابك ومماليكه ، فقتلوه والقوا برأسه إلى اصحابه ، ظناً منهم أن أصحابه يتفرقون ، ويخرج الملك ، ويملك البلد ، وكان الأمر خلاف ما ظنوه ، فان أصحابه وأصحاب أتابك الذين في خدمته ، لما رأوا رأسه ، قاتلوا مَنْ بالدار مع الملك ، وأجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة أتابك مملوءة بالرجال والأجناد، ذوي الرأي والتجربة ، ثم دخل إليه القاضي تاجٍ الدين يحيى بن الشهرزوري ، ولم يزل به يخدعه ، وكان فيما قال له ، لما رآه منزعجا: يا مولانا، لم تحرد من هذا الكلب : هذا وأستاذه مماليك ، والحمد لله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يدك ، وما الذي يقعدك في هذه الدار، قم لتصعد القلعة، وتأخذ الأموال والسلاح ، وتملك البلد وتجمع الجند، وليس دون الموصل مانعٌ ، فقام معه ، وأصعده القلعة فلما قاربها، أراد من بها، من النقيب والأجناد، القتال ، فتقدَّم إليهم القاضي تاج الدين ، وقال لهم : افتحوا الباب ، وتسلموه ، وافعلوا به ما

أردتم : ثم فتح الباب ودخل الملك والقاضي إليها، ومعهما مَنْ أعان على قتل نصير الدين ، فسُجِنوا ، ونزل القاضي وبلغ الخبر أتابك زنكي ، وهو يحاصر قلعة البيرة ، وقد أشرف على ملكها، فخاف أن تختلف البلاد الشرقية، بعد قتل نصير الدين ، ففارق البيرة، وأرسل زين الدين علي بن بكتكين إلى قلعة الموصل ، والياً على ما كان نصير الدين يتولاه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، قبض السَّلطان مسعود على وزيره البروجردي ، ووزر بعده المرزبان بن عبيد الله بن نصر الأصفهاني ، وسلم اليه البروجردي ، فاستخرج أمواله ومات مقبوضاً .

وفيها كان أتابك عماد الدين زنكي يحاصر البيرة ، وهي للفرنج شرق الفرات ، بعد

ملك الرها، وهي مِن أمنع الحصون ، وضيق عليها وقارب أنْ يفتحها، فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل ، فرحل عنها، وأرسل نائباً للموصل وأقامٍ ينتظر الخبر، فخاف منْ بالبيرة من الفرنج أنْ يعود إليهم ، وكانوا يخافونه خوفاً شديداً، فأرسلوا إلى نجم الدين ، صاحب ماردين وسلّموها له فملكها المسلمون .

وفيها، خرج أسطول الفرنج مِنْ صقلية إلى ساحل أفريقية والغرب ، ففتحوا مدينة برشك ، وقتلوا أهلها ، وسبوا حريمهم ، وباعوه بصقلية على المسلمين .

وفيها توفي تاشفين بن علي بن يوسف ، صاحب المغرب ، وكانت ولايته تزيد على أربع سنين . وولي بعده أخوه، وضعف أمر الملثمين ، وقوي عبد المؤمن ، وقد ذكرنا ذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة .

وفيها، في شوال ، ظهر كوكب عظيمٌ له ذَنَب ، مِنْ جانب المشرق ، وبقي إلى نصف ذي القعدة، ثم غاب . ثمّ طلع من جانب الغرب ، فقيل هوهو. وقيل بل غيره . وفيها كانت فتنةٌ عظيمة، بين الأمير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوي الحسيني ،امير مكة، والأمير نظر الخادم أمير الحاجّ ، فنهب أصحاب هاشم الحجّاج ، وهم في المسجد، يطوفون ، ويصلون ، ولم يرقبوا فيهم إلا ولاذمة .

وفيها، في ذي الحجة، توفي عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله بن حمدويه ، أبو المعالي المروزي ، بمرْو، وسافر الكثير، وسمع الحديث الكثير، وبُنِيَ بمرو رباطاً ، ووقف فيه كتباً كثيرةً، وكان كثيرُ الصدقةِ والعبادةِ .

وتوفي محمد بن عبد الملك بن حسن بن ابراهيم بن خيِرون ،أبو منصور المقري ،في رجب ، ومولده في رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وهو آخر من روى عن الجوهري بالإجازة .

وفي ذي الحجة، منها، توفي أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر، المعروف بابن الرزاز، مدرس النّظامية ببغداد، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وتفقه على الغزالي والشاشي ، ودفن في تربة الشيخ أبي إسحاق .

ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة

ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السُّلطان

في هذه السنة ، سار بوزابة – صاحب فارس وخوزستان – وعساكره ، إلى قاشان ، ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود، ووصل إليهما الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد ، واجتمع بوزابة ، والأمير عباس ، صاحب الري ، واتفقا على الخروج عَنْ طاعة السلطان مسعود ، وملكا كثيراً مِنْ بلاده ، ووصل الخبر إليه ، وهو ببغداد ، ومعه الأمير عبد الرحمن طغايرك – وهو أمير حاجب حاكم في الدولة – وكان ميله ، إليهما، فسار السلطان ، في رمضان عن بغداد، ونزل بها الأمير مهلهل ،ونظر وجماعة من غلمان بهروز، وسار السلطان وعبد الرحمن معه ، فتقارب العسكران ، ولم يبق إلا المصاف ، فلحق سليمان شاه بأخيه مسعود، وشرع عبد الرحمن في تقرير الصلح ، على القاعدة التي أرادوها ، وأضيف إلى عبد الرحمن ولاية أذربيجان وأرانية إلى ما بيده ، وصار أبو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود، وهو وزير بوزابة ، فصار السلطان معهم تحت الحجر، وأرسلوا بك أرسلان بن بلنكري ، المعروف بخاص بك ، وهو ملازم السلطان ، وتربيته ، وصار في خدمته عبد الرحمن ، ليحقن دمه ، وصار الجماعة في خدمة السلطان ، بالصورة لا بالمعنى ، والله أعلم .

ذكر استيلاء علي بن دبيس بن صدقة على الحلة

في هذه السنة، سار علي بن دبيس إلى الحلّة هارباً، فملكها، وكان سبب ذلك ،أن السلطان لما أراد الرحيل مِنْ بغداد، أشار عليه مهلهل أن يحبس علي بن دبير بقلعة تكريت

، فعلم ذلك ، فهرب في جماعة يسيرة، نحو خمسة عشر، فمضى إلى الأزيز، وجمع بني أسد وغيرهم ، وسار إلى الحلة ، وبها أخوه محمد بن دبيس ، فقاتله فانهزم محمد، وملك علي الحلة، واستهان السلطان أمر. أولًا، فاستفحل ، وضم إليه

جمعاً من غلمانه وغلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم ،وكَثُر جمعهم ، فسار إليه مهلهل ، فيمن معه في بغداد من العسكر، وضربوا معه مصافاً، فكسرهم ، وعادوا منهزمين ، إلى بغداد، وكان أهلها يتعصبون لعلي بن دبيس وكانوا يصيحون ، إذا رأوا مهلهلًا وبعض أصحابه : يا علي كله . وكثر ذلك مِنهم ، بحيث امتنع مهلهل من الركوب ومد علي يده قي أقطاع الأمراء بالحلة، وتصرف فيها، وصار شحنة بغداد ومن فيها على وجل منه ، وجمع الخليفة جماعة، وجعلهم على السور لحفظه ، وراسل علياً فأعاد بأنني العبد المطيعٍ مهما رسم لي فعلت ، فسكن الناس ، ووصلت الأخبار – بعد ذلك – أنّ السلطان مسعودا تفرق خصومه عنه ، فازداد سكون الناس لذلك .

ذكر عدة حوادث

حج بالناس ، هذه السنة قايماز الأرجواني ، صاحب أمير الحاج نظر، واحتج بأن بركه نهب في كسرة الخلة، وأن بينه وبين أمير مكة من الحروب ما لا يمكنه معه الحج . وفيها اتصل بالخليفة، عن أخيه أبي طالب ، ما كرهه ، فضيق عليه ، واحتاط على غيره من أقاربه .

وفيها ملك الفرنج ، لعنهم الله ، مدينة شَنْتَرين ومَاجَة ومارِدة وأَشْبُونَة، وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس ، وكانت للمسلمين ، فاختلفوا ، فطمِع العدو، وأخذ هذه المدن ، وقوي بها قوةً تُمتهَن ، وتُيقن ملك بلاد الإسلام بالأندلس ، فخيّب الله ظنه ، وكان ما نذكره .

وفيها ، سار أسطول الفرنج ، من صقلية ، ففتحوا جزيرة قرقنة ، من أفريقية ، فقتلوا رجالها، وسبوا حريمهم ، فأرسل

الحسن ، صاحب افريقية، الى رجال ملك صقلية، يذكَره بالعهود التي بينهم ، فاعتذر بأنهم غير مطيعين له .

وفي هذه السنة ، توفي مجاهد الدين بهروز الغيائي ، وكان حاكماً بالعراق نيفاً وثلاثين سنة ، وبرتقش الزكوي صاحب أصفهان ، وكان ايضاً شحنة بالعراق ، وهو خادم ارمني لبعض التجار. وتوفي الأمير أيلدكر شحنة بغداد، والشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر الجواليقي اللغوي ، ومولده في ذي الحجة، سنة خمس وستين وأربعمائة، وأخذ اللغة عن أبي زكريا التبريزي ، وكان يؤم بالمقتفي أمير المؤمنين ،

وتوفي أحمد بن محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن سليمان ابو سعيد بن أبي الفضل الأصفهاني ، ومولده سنة ثلاث وستين وأربعمائة .وروى الحديث الكثير وكان على سيرة السلف كثير الاتباع للسنة رحمة الله عليه .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب

في هذه السنة ، ملك الفرنج ، لعنهم الله ، طرابلس الغرب ، وسبب ذلك أن رجار، ملك صقلية ، جهز اسطولاً كثيراً ، وسيره إلى طرابلس ، فأحاطوا بها ، براً وبحراً ، ثالث المحرّم ، فخرج إليهم أهلها، وأنشبوا القتال ، فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام . فلتا كان اليوم الثالث ، لا سمع الفرنج بالمدينة ، ضجة عظيمة، وخلت الأسوار من المقاتلة . وسبب ذلك ، أنّ أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيام يسيرة ، قد اختلفوا ،فأخرج طائفة منهم بني مطروح ، وقدموا عليهم رجلاً من الملثمين ، قدم يريد الحج ، ومعه جماعة ، فولوه أمرهم ، فلمّا نازلهم الفرنج ، اعادت الطائفة الأخرى بني مطروح ، فوقع الحرب بين الطائفتين ، وخلت الأسوار، فانتهز الفرنج الفرصة، ونصبوا السلالم ، وطلعوا على السور واشتدّ القتال ، فملكت الفرنج المدينة عنوة وقهراً، بالسيف ، فسفكوا دماء أهلها ، وسبوا نساءهم ، وأخذوا أموالهم ، وهرب من قدر على الهرب ، والتجأ إلى البربر والعرب ، فنودي بالأمان في كافة الناس . فرجع كل من فر منها ، وأقام الفرنج ستة أشهر، حتى حصنوا سورها ، وحفروا خنادقها ، ولمّا عادوا أخذوا رهائن أهلها ، ومعهم بنو مطروح والملثم ، ثم أعادوا رهائنهم ، وولّوا عليها رجلاً من مطروح وأخذوا رهائنه وحده ، واستقامت أمور المدينة ، وألزم أهل صقلية والسفن والروم بالسفر إليها ، فانعمرت سريعاً .

ذكر حصن زنكي حصن جعبر وفتك

وفي هذه السنة ، سار أتابك زنكي الى حصن جعبر(1)، وهو مطل على الفرات ،

(1) قلعة جعبر: على الفرات مقابل صفين ، كانت تعرف أولًا بدَوسر.

وكان بيد سالم بن مالك العقيلي ستهمه السلطان ملكشاه إلى أبيه لما أخذ منه حلب ، وقد ذكرناه – فحصره ، وستر جيشاً إلى قلعة فنك ، وهي تجاور جزيرة ابن عمر(1)، بينهما فرسخان ، فحصرها أيضاً ، وصاحبها حينئذ الأمير حسام الدين الكردي البشنوي ، وكان سبب ذلك ، أنه كان لا يريد أن يكون في وسط بلاده ، ما هو ملك غيره ، جزماً واحتياطاً ، فنازل قلعة جعبر، وحصرها وقاتله من بها، فلما طال عليه ذلك ، أرسل إلى صاحبها، مع الأمير حسان المنجي ، لمودة كانت بينهما، في معنى تسليمهما، وقال له : تضمن عني الأقطاع الكثير، والمال الجزيل ، فإن أجاب إلى التسليم ، وإلا فقل له والله لأقيمن عليك ، إلى أن أملكها عنوة، ثم لا أبقي عليك ، ومن الذي يمنعك مني ، فصعد إليه حسان ، وأدى إليه الرسالة، ووعده ، وبذل له ما قيل له ، فامتنع من التسليم ، فقال له حسان فهو يقول لك : من يمنعك من قتالي ، ومن يمنعك مني ، فقال : يمنعني منه الذي منعك من الأمير بلك ، فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه ، ولم يذكر له هذا، فقتل أتابك بعد أيام .

كانت قصّة حسان مع بلك ابن أخي أيلغازي ، أنّ حساناً كان صاحب منبج ، فحصره بلك ، وضيْق عليه ، فبينما هو كذلك في بعض الأيام يقاتله ، جاءه سهمٌ لا يعرف من رماه فقتله ، وخلص حسان من الحصر – وقد تقدم ذكره – وكان هذا القول من الاتفاق الحسن ، ولما قُتل أتابك زنكي ، رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها، وهي بيد عقاب صاحبها إلى الآن ، وسمعتهم يذكرون أنهم لهم بها نحو ثلاثمائة سنة، ولهم مقصد حسن ، وفيهم وفاء وعصبية، يأخذون بيد كل من يلتجىء إليهم ،

ويقصدهم ،ولا يسلَمونه إلى طالبه ، كائناً من كان ، قريباً أم غريباً .

ذكر قتل أتابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته

في هذه السنة، لخمس مضين ، من ربيع الآخر، قُتَل أتابك الشّهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل والشام ، وهو يحاصر قلعة جعبر، على ما ذكرناه ، قتله جماعة من مماليكه ليلًا، غيلة، وهربوا إلى قلعة جعبر، فصاحوا على مَنْ بها من

(ا) جزيرة ابن عمر: بلدة فرق الموصل ، بينهما ثلاثة أيام .

أهلها من العسكر، يعلمونهم بقتله ، وأظهروا الفرح ، فدخل أصحابه إليه ! فأدركوه وبه رمق .

حدثني والدي عن بعض خواصه ، قال : دخلت إليه في الحال ، وهو حي ، فحين رآني ظنَّ أني أريد قتله ،فأشار إلي بأصبعه السبّابة يستعطفني ، فوقعتَ من هيبته ، فقلت : يا مولاي من فعل هذا ، فلم يقدر على الكلام ، وفاضت نفسه رحمه الله . قال : وكان حسن الصورة ، أسمر اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، وكان قد زاد عمره على ستين سنة، لأنه كان لمّا قتل والده صغيراً –كما ذكرناه قبل – ولمّا قُتِل دفن بالرقة، وكان شديد الهيبة، على عسكره ورعيّته ، عظيمِ السياسة، لا يُقْدِر القوي على ظلم الضعيف ، وكانت البلاد، قبل أن يملكها خراباً من الظّلم ، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج ، فعمرها وامتلأت أهلًا وسكاناً . (حكى لي والدي) قال : رأيت الموصل ،وَأكثرها خراب ، بحيث يقف الإنسان قريب محلة الطيالين ، ويرى الجامع العتيق والعرصة ودارَ السلطان وليس بين ذلك عمارة قط ، وكان الإنسان لا يقدر على المشي إلى الجامع العتيق ،– إلا ومعه من يحميه ، لبعده عن العمارة، وهو الآن في وسط العمارة ، وليس في هذه البقاع المذكورة كلها، أرضٌ مراح قال : وحدثني أيضاً أنّه وصل إلى الجزيرة في الشتاء ، فدخل الأمير عز الدين الدبيسي ، وهو من أكابر أمرائه ، ومن جملة اقطاعه ، مدينة دقوقا ، ونزل في دار إنسان يهودي ، فاستغاث اليهودي إلى أتابك ، وأنهى حاله إليه ، فنظر إلى الدبيسي فتأخر، ودخل البلد، وأخرج بركه وخيامه ، قال : فلقد رأيت غلمانه ينصبون خيامه في الوحل ، وقد جعلوا على الأرض تبنا يقيهم الطين ، وخرج ، فنزلها، وكانت سياسته إلى هذا

الحد، وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة، فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ، ورياحين ، وغير ذلك . وكان أيضاً شديد الغيرة، ولا سيّما على نساء الأجناد، وكان يقول : إن لم تحفظ نساء الأجناد،وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن ، في الأسفار، وكان أشجع خلق الله ، أمّا قبل أن يملك ، فيكفيه أنه حضر مع الأمير مودود، صاحب الموصل ، مدينة طبرية، وهي للفرنج ، فوصلت طعنته باب البلد، وأثّرت فيه ، وحمل أيضا على قلعة عقر الحميدية، وهي على جبل عال ، فوصلت طعنته الى سورها، إلى أشياء.

وأما بعد الملك ، فقد كان الأعداء محدقين ببلاده ، وكلهم يقصدها، ويريدون

أخذها، وهو لا يقنع بحفظها حتى أنّه لا ينقضي عليه عامٌ ، حتى يفتح من بلادهم ، فقد كان الخليفة، المسترشد بالله ، مجاوره ، في ناحية تكريت ، وقصد الموصل وحصرها، ثم إلى جانبه ، من ناحية شهرزور وتلك الناحية ، السلطان مسعود، ثم ابن سقمان ، صاحب خِلاط (ا) ، ثم داود بن سقمان ، صاحب حصن كيفا ، ثمّ صاحب آمد وماردين ، ثم الفرنج ، من مجاورة ماردين إلى دمشق ، ثمّ أصحاب دمشق ، فهذه الولايات قد اختلطت بولايته من كل جهاتها، فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة، ويأخذ من هذا ، ويصانع هذا ، إلى أن ملك ، من كل مزيليه ، طرفاً من بلاده ، وقد أتينا على أخباره قي كتاب الباهر، في تاريخ دولته ودولة أولاده ، فليطلب من هناك .

ذكر ملك ولديه سيف الدين غازي ونور الدين محمود

لما قُتِل أتابك زنكي ، أخذ نور الدين محمود ، ولده ، خاتمه من يده ، وكان حاضراً معه ، وسار إلى حلب فملكها، وكان حينئذ يتولّى ديوان زنكي ، ويحكم في دولته ، من أصحاب الحمائم ، كمال الدين محمد بن علي ، وهو المنفرد بالحكم ، ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني ، فاتفقا على حفظ الدولة، وكان مع الشهيد أتابك الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود ، فركب ذلك اليوم ، وأجمعت العساكر عليه ، وحضر عنده جمال الدين ، وحسّنا له ، الاشتغال بالشرب ، والمغنيات ، والجواري ، وأدخلاه الرقة ، فبقي بها أياماً لا يظهر، ثم سار إلى ماكسين ، فدخلها وأقام بها أياماً ، وجمال الدين يحلف الأمراء لسيف الدين غازي بن أتابك زنكي ، ويسيِّرهم إلى المؤصل ، ثم سار من ماكسين إلى سنجار، وكان سيف الدين قد وصل إلى الموصل ، فلما وصلوا إلى سنجار، أرسل جمال الدين إلى الدزدار، يقول له :

ليرسل إلى ولد السلطان ، يقول له : اني مملوكك ، ولكن نبغي الموصل ، فإن ملكتها، سلّمت إليك سنجار، فسار الى الموصل ، فأخذه جمال الدين ، وقصد به مدينة بلد، وقد بقي معه من العسكر القليل ، فأشار عليه بعبور دجلة ،فعبرها الى الشّرق في نفريسير، وكان سيف الدين غازي بمدينة شهرزو، وهي أقطاعه ، فأرسل إليه زين الدين علي نائب أبيه

(1) خلاط : بلدة عامرة مشهورة ذات خيرات واسعة، في الإقليم الخامس، وهي من فتوح عياض بن غنم ، وهي قصبة أرمينية.

بالموصل ، يستدعيه الى الموصل ، فحضر قبل وصول الملك ، فلما علم جمال الدين بوصول سيف الدين إلى الموصل ، أرسل إليه يعرفه قلة من معه ، فأرسل إليه بعض عسكره ، فقبضه ، وحبس في قلعة الموصل ، واستقر ملك سيف الدين البلاد، وفي أخوه نور الدين بحلب ، وير له ، وسار إليه صلاح الدين الباغيسياني ، مدبر أمره ، والقائم بدولته وحفظها ، وقد استقصينا شرح هذه الحادثة في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية .

ذكر عصيان الرها لما قتل أتابك

كان جوسلين الفرنجي ، الذي كان صاحب الرها في ولايته ، وهي تل باشر وما يجاورها ، فراسل أهل الرها ، وعافتهم من الأرمن ، وحملهم على العصيان ، والامتناع من المسلمين ، وتسليم البلد إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه ، وسار في عساكره إلى الرها وملك البلد، وامتنعت القلعة عليه بس فيها من المسلمين ، قاتلهم فبلغ الخبر، إلى نور الدين محمود بن زنكي ، وهو بحلب ، فسار مجداً إليها في عسكره ، فلما قاربها ، أخرج جوسلين هارباً ، عائداً إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة، ونهبها حينئذ وسبى أهلها، وفي هذه الدفعة نهبت وخلت من أهلها، ولم يبق منهم إلا القليل ، وكثير من الناس يظن أنّها نُهِبت لمّا فتحها الشهيد، وليس كذلك ، وبلغ الخبر إلى سيف الدين غازي بعصيان الرها، فسير العساكر إليها، فسبقه الملك نور الدين إلى البلد واستباحه ، وهم في الطريق فعادوا . ومن أعجب ما يحكى ، ان زين الدين علياً ، الذي كان نائب الشهيد ، وأولاده بقلعة الموصل ، جاءه هدية ، أرسلها إليه نور الدين من هذا الفتح ، وفي الجملة جارية، فلما دخل إليها، وخرج من عندها، وقد اغتسل ، وقال لمن عنده تعلمون ما جرى لي في يومنا هذا، قالوا لا، قال :

لما فتحنا الرها مع الشهيد، وقع في يدي من السبي جارية رائعة، أعجبني حسنها، ومال قلبي إِليها، فلم يكن بأسرع من أن أَمَر الشهيدُ فنودي برد السبي ، والمال المنهوب ، وكان مهيباً فخوفاً، فرددتها وقلبي متعلق بها، فلمّا كان الآن ،جاءتني هدية نور الدين ، وفيها عدة جوارٍ ، فيها تلك الجارية فوطئتها خوفاً أن تقع مثل تلك الردة .

ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس

في هذه السنة، سيَر عبد المؤمن بن علي جيشاً إلى جزيرة الأندلس ، فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام ، وسبب ذلك ، أن عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء اليه جماعة

من أعيان الأندلس ، منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمدين ، ومعهم مكتوب ، يتضمن بيعة أهل البلاد التي هم فيها، لعبد المؤمن ، ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين وإقامتهم لأمره ، فقبل عبد المؤمن ذلك منهم ، وشكرهم عليه وطلب قلوبهم ، وطلب منهم النصرة، وطلبوا منه النصرة على الفرنج ، فجهز جيشاً كثيفاً، وسير معهم ،وعمر اسطولاً،وستره في البحر، فسار الأسطول إلى الأندلس ، وقصدوا مدينة أشبيلية ، وصعدوا في نهرها ، وبها جيشٌ من الملثمين ، فحصروها براً وبحراً ، وملكوها عنوة، وقُتِلَ فيها جماعةٌ ، وأمِنَ الناس ، فسكنوا، واستولت العساكر على البلاد وكان لعبد المؤمن من بها.

ذكر قتل عبد الرحمن طغايرك وعباس صاحب الري

في هذه السنة، قتل السلطان مسعود أمير حاجب دولة عبد الرحمن طغايرك ، وهو صاحب خلخال وبعض أذربيجان ، والحاكم في دولة السلطان ، وليس للسلطان معه حكم . وكان سبب قتله ، أنّ السلطان ، لمّا ضيق عليه عبد الرحمن ، وبقي معه شبه الأسير، ليس له في البلاد حكمٌ ، حتى أنّ عبد الرحمن قصد غلاماً كان للسّلطان ، وهو بك أرسلان المعروف بابن خاص بك بن بلنكري ، وقد رباه السلطان ، وقربه ، فأبعده عنه ، وصار لا يراه ، وكان في خاص بك عقل ، وتدبير، وجودة قريحة ، وتوصل لما يزنه بعقله ، فجمع عبد الرحمن العساكر، وخاص بك فيهم ، وقد استقر بينه وبين السلطان مسعود، أنْ يقتل عبد الرحمن ، فاستدعى خاص بك جماعة، ممن يثق بهم ، وتحدّث معهم ، في ذلك ، فكل منهم خاف الإقدام عليه ، إلا رجلاً، اسمه زنكي ، وكان جانداراً، فإنه بذل مِنْ نفسه أنْ يبدأه بالقتل ، ووافق خاص بك على القيام في الأمر، جماعة من الأمراء، فبينما عبد الرحمن في موكبه ،

ضربه زنكي الجندار بمقرعة حديد، كانت في يده ، على رأسه ، فسقط إلى الأرض ، فأجهز عليه خاص بك ، وأعانه على حماية زنكي والقائمين معه ، من كان واطأه على ذلك من الأمراء . وكان ، قتله بظاهر جنزة ، وبلغ الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد ، ومعه الأمير عباس ، صاحب الري ، وعسكره أكثر من عسكر السلطان ، فأنكر ذلك ، وامتعض منه ، فداراه السلطان ولَطُفَ به ، واستدعى الأمير البقش كون خروتتر، وهو أمير اللحف ، وتتر الذي كان حاجباً، فلما قوي بهما، أحضر عباساً إليه في داره ، قلتا دخل إليه ، منع أصحابه من الدخول

معه ، وعدلوا به الى حجرة، وقالوا له : اخلع الزردية، فقال : إن لي مع السلطان أيماناً وعهوداً، فلكموه ، وخرج له غلمان ، أُعدّوا لذلك ، فحينئذ تشهّد، وخلع الزردية، والقاها ، وضربوه بالسيوف ، واحتزوا رأسه ، وألقوه إلى اصحابه ، ثم ألقوا جسده ، ونُهِبَ رحله ، وانزعج البلد لذلك ، وكان عباس مِنْ غلمان السلطان محمود، حسن السيرة، عادلاً في رعيته ، كثير الجهاد للباطنيّة، قتل منهم خلقاً كثيراً، وبنى رؤوسهم متارة بالري ، وحصر قلعة الموت ، ودخل إلى قرية من قراهم ، فألقى فيها النار، فاحرق كلّ منْ فيها مِنْ رجلٍ وامرأة وصبي ، وغير ذلك ، وقُتِل بالجانب الغربي ، فأرسلت ابنته فحملته إلى الري ، فدفنته هناك . وكان مقتله في ذي القعدة .

ومِنَ الاتفاق العجيب ، أنّ العبادي كان يعظ يوماً، فحضره عباس ، فأسمع بعض أهل المجلس ، ورمى بنفسه نحو الأمير عباس ، فضربه أصحابه ومنعوه خوفاً عليه لأنه كان شديد الاحتراس مِنَ الباطنيّة ، لا يزال لابساً الزردية ، لا تفارقه الغلمان الأجلاد، فقال له العبادي كم هذا الاحتراز، والله لئن قضي عليك بأمر، لتحلن أنت بيدك أزرار الزردية، فينفذ القضاء فيك ، وكان والله كما قال .

وقد كان السلطان استوزر ابن دارست وزير بوزابة كارهاً – على ما تقدم ذكره – فعزله الآن ، لأنه اختار العزل ، والعود إلى صاحبه بوزابة ، فلما عزله قرر معه أنْ يُصلح له بوزابة ، ويزيل ما عنده من الاشمئزاز بسبب قتل عبد الرحمن وعباس ، فسار الوزير، وهولا يعتقد النجاة، فوصل إلى بوزابة، وكان ما نذكره .

في هذه السنة ، حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه ، بقلعة تكريت .

وفيها توفي الأمير جاولي الطغرلي ، صاحب أرانية(1) وبعض أذربيجان ، وكان قد تحرّك للعصيان ، وكان موته فجأة مدقوساً، فنزف دماً فمات .

وتوفي شيخ الشيوخ ، صدر الدين اسماعيل بن أبي سعيد الصوفي ، مات ببغداد،

(1) أرانية : في معجم البلدان أزان : بالفتح وتشديد الراء وألف ونون . اسم اعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة، منها جنزة، وهى التى نسميها العامة كنجة، وبين أذربيجان وأزان نهر يقال له الرس.

ودفن بظاهر رباط الدوري ، بباب البصرة ، ومولده سنة أربع وستين وأربعمائة . وقام في منصبه ولده عبد الرحيم .

وفيها توفي مسعود بن بلال ،شحنة بغداد، وسار السلطان عنها .

وفيها ، كان بالعراق جراد كثير، أمحل أكثر البلاد .

وفيها ورد العبادي الواعظ ، رسولاً ، مِنَ السلطان سنجر إلى الخليفة ، ووعظ ببغداد ،وكان له قبولٌ بها، وحضر مجلسه السلطان مسعود فمَنْ دونه . وأما العامة، فإنهم كانوا يتركون أشغالهم ، لحضورهم مجلسه ، والمسابقة إليه.

وفيها، بعد قَتْلِ الشهيد زنكي بن آقسنقر، قصد صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره ، وكان به نجم الدين أيوب بن شاذي ، فخاف أن أولاد زنكي لا يمكنهم انجاده بالعاجل ، فصالحه وسلّم القلعة إليه ، وأخذ مِنْه أقطاعاً ومالاً ، وملكه عشر قرى من بلاد دمشق ، وانتقل أيوب الى دمشق ، فسكنها وأقام بها .

وفي هذه السنة، في ربيع الأخر، توفي عبد الله بن علي بن أحمد المقري ابن

بنت الشيخ أبي منصور، ومولده في شعبان ، سنة أربع وستين وأربعمائة، وكان مقرئاً نحوياً محدثاً، وله تصانيف في القراءات .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل بوزابة

لمّا اتصل بالأمير بوزابة ، قَتْل عباس ، جمع عساكره مِنْ فارس وخوزستان وسار إلى أصفهان ، فحصرها وسير عسكراً آخر إلى همذان ، وعسكر ثالثاً إلى قلعة الماهكي ، من بلد اللحف فأمّا عسكره بالماهكي فإنه سار إليهم الأمير البقش كون خر، فدفعهم عَنْ أعماله ،وكانت أقطاعه ، ثمّ إن بوزابة سار عن اصفهان ، يطلب السلطان مسعوداً ، فراسله السلطان فيِ الصلح ، فلم يجب إليه ، وسار مجذاً، فالتقيا بمرج قراتكين ، وتصافا، فاقتتل العسكران ،فانهزم منه السلطان مسعود وميسرته ، واقتتل القلبان أشدّ قتالٍ ، وأعظمه ، صبر فيه الفريقان ، وصار الحرب بينهما، فسقط بوزابة عن فرسه بسهم اصابه ، وقيل : بل عثر به الفرس ، فأخذ أسيراً، وحُمِل إلى السلطان ، فَقُتِل بين يديه ، وانهزم أصحابه لما أخذ هو أسيراً ، وبلغت هزيمة العسكر السلطاني من الميمنة والميسرة ، إلى همذان وخراسان ، وقُتِلَ مِنَ الفريقين خلقٌ كثير ، وكان هذا الحرب مِنْ أعظم الحروب الكائنة بين الأعاجم .

ذكر طاعة أهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها

كان صاحب مدينة قابس ، قبل هذه السنة ، إنساناً اسمه رشيد ، فتوفي وخلف

أولاداً . فعمد مولىً له اسمه يوسف إلى ولده الصغير واسمه محمد ،فولّاه الأمر وأخرج ولده الكبير معمراً ،واستولى يوسف على البلد ، وحكم على محمد لصغر سنه ،وجرى منه أشياء مِنَ التعرض إلى حرم سيده ، والعهدة على ناقله . وكان من جملتهن ، امرأة من بني قرة ،فأرسلت إلى اخوتها تشكو اليهم ما هي فيه ،

فجاء أخوتها لأخذها ، فمنعها منهم ، وقال هذه حرمة مولاي ، ولم يسئمها ، فسار بنو قرة ومعمر بن رشيد إلى الحسن ، صاحب أفريقيا، وشكوا إِليه ما يفعل يوسف ، فكاتبه الحسن في

ذلك ، فلم يجبه وقال : لئن لم يكف الحسن عني ، وإلا سلمت قابس إلى صاحب صقلية، فجهز الحسن العسكر إليه ، فلمّا سمع يوسف بذلك ، أرسل إلى رُجار الفرنجي ، صاحب صقلية ، وبذل له الطاعة ، وقال له : أريد مِنْكَ خلعة وعهداً بولاية قابس لأكون نائباً عنك كما فعلت مع بني مطروح أصحاب طرابلس ، فسير إليه رجار الخلعة والعهد، فلبسها وقُرِىء العهد بمجمع الناس ، فجد حينئذ الحسن في تجهيز العسكر إلى قابس ، فساروا إليها ونازلوها ، وحصروها، فثار أهل البلد بيوسف لما أعتمده من طاعة الفرنج ، وسلموا البلد إلى عسكر الحسن ، وتحضن يوسف قي القصر، فقاتلوه حتى فتحوه وأخِذ يوسف أمميراً، فتولّى عذابه معمر بن رشيد وبنو قرة،فقطعوا ذكره ، وجعلوه في فيه ، وعذب بأنواع العذاب ، ووُليَ معمر قابس مكان أخيه ، وأخذ بنو قرة أختهم ، وهرب عيسى أخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رجار صاحب صقلية ، فاستجاروا به وشكوْا إليه ما لقوْا مِنَ الحسن ، فغضب لذلك ، وكان ما نذكره ، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من فتح المهدية، إن شاء الله تعالى . وهذا الذي كان من يرسف ، والله أعلم .

ذكر حادثة ينبغي أن يحتاط العاقل من مثلها

كان هذا يوسف ، صاحب قابس ، قد أرسل رسولا إلى رجار، صاحب صقلية، فاجتمع هو والحسين ، رسول صاحب المهدية عنده ، فجرى بين الرسولين مناظرة ،فذكر رسول يوسف الحسن ، ونال منه وذمّه ، ثمّ إنهما عادا في وقت واحد ، وركبا البحر، كل واحد منهما في مركبه ، فأرسل رسول الحسن رقعةً على جناح طائر، يخبره بما كان من رسول يوسف فسير الحسن جماعةٌ مِنْ أصحابه في البحر، فأخذوا رسول يوسف ، أحضروه عند الحسن

فسبّه ، وقال : ملكت الفرنج بلاد الإسلام ، وطولت لسانك بذمي ، ثم أركبه جملاً، وعلى رأسه جلاجل ، وطيّف به في البلد، ونودي عليه : هذا جزاءُ مَنْ سعى أن يملك الفرنج بلاد المسلمين ، فلما توسط المهدية ثار به العامة، فقتلوه بالحجارة .

ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الأندلس

في هذه السنة، في جمادى الأولى ، حصر الفرنج مدينة المرية من الأندلس ، وضيقوا عليها براً وبحراً ، فملكوها عُنوْة ، وأكثروا القتل بها والنهب ، وملكوا أيضاً مدينة

شاسة ، وولاية جيان ، وكلها بالاندلس ، ثم استعادها المسلمون بعد ذلك منهم ، على ما نذكره إن شاء الله تَعالى .

ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة مواضع من بلدة الفرنج

في هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكي ، صاحب حلب ، بلد الفرنج ، ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ، ونهبها وحصر مابولة وبصرفوت وكفرلاثا، وكان الفرنج بعد قَتْلِ والده زنكي ، قد طمعوا وظنّوا أنّهم بعده يستردون ما أخذه ، فلما رأوْا من نور الدين هذا الجد، في أول امره ، علموا أن ما أمِلوه بعيد، وخاب ظنّهم وأملهم .

ذكر أخذ الحلة من علي بن دبيس وعوده إليها

في هذه السنة، كَثُر فساد أصحاب علي بن دبيس بالحلة وما جاورها، وكثُرت الشكاوى مِنْه ، فأقطع السلطان مسعود الحلة سلاركرد، فسار إليها من همذان ، ومعه عسكر، وانضاف إليه جماعةٌ من عسكر بغداد، وقصدوا الحلة ،فجمع على عسكره وحشد ، والتقى العسكران بمطيرباذ ، فانهزم علي وملك سلاركرد الحلة ، واحتاط على أهل علي ورجعت العساكر، وأقام هو بالحلة ومماليكه وأصحابه ، وسار علي بن دبيس ، فلحق بالبقش كون خر، وكان بأقطاعه في اللحف ، متجنياً على السلطان ، فاستنجده ، فسار معه إلى واسط ، واتفق هو والطرنطاوي ، وقصدوا الحلة ، فاستنقذوها من سلاركرد، في ذي الحجة ، وفارقها سلاركرد ، وعاد الى بغداد .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الأولى، خطب للمستنجد بالله ، يوسف بن المقتفي لأمر الله ، بولاية العهد .

وفيها، ولي عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد، وولي زعيم الدين يحيى بن جعفر المخزن.

وفيها، في ربيع الأول ، مات ابو القاسم طاهر بن سعيد بن أبي سعيد بن أي الخير الميهني ، شيخ رباط البسطامي ببغداد .

وفي ربيع الآخر، توفيت فاطمة خاتون ، بنت السلطان محمد، زوجة المقتفي لأمر الله .

وفي رجب منها، مات أبو الحسن محمد بن المظفر بن علي بن المسلمة ابن رئيس الرؤساء ، ومولده سنة أربع وثمانين ، وكان قد تصوف ، وجعل داره التي في القصر رباطاً للصوفية .

وفيها سار سيف الدين غازي بن زنكي ، إلى قلعة دارا، فملكها، وغيرها من بلد ماردين ، ثم سار إلى ماردين وحصرها ، وخرب بلدها ، ونهبه ، وكان سبب ذلك أن أتابك زنكي ، لمّا قُتِلَ ، تطاول صاحب ماردين، وصاحب الحصن ، إلى ما كان قد فتحه من بلادهما ، فأخذاه فلمّا ملك سيف الدين ، وتمكّن ، سار إلى ماردين ، وحصرها ، وفعل ببلدها الأفاعيل العظيمة ، فلمّا رأى صاحبها ، وهو حينئذ حسام الدين تمرتاش ، ما يفعل في بلده قال : كنا نشكو مِنْ أتابك الشهيد، وأين أيامه ، لقد كانت أعياداً قد حصرنا غير مرة، فلم يأخذ، هو، ولا أحد من عسكره ، مخلاة تبنٍ بغير ثمن ، ولا تعدّى هو وعسكره حاصل السلطان ، وأرى هذا ينهب البلاد ويخربها ، ثم راسله ، وصالحه وزوجه ابنته ، ورحل سيف الدين عنه ، وعاد إلى الموصل ، وجهزت ابنة حسام الدين ، وسيّرت إليه ، فوصلت وهو مريض ، قد أشفى على الموت ، فلم يدخل بها، وبقيت عنده إلى أن توفي وملك قطب الدين مودود، فتزوجها، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها اشتد الغلاء بأفريقية، ودامت أيامه فإن أوله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، وعَظُم الأمر على أهل البلاد، حتى أكل بعضهم بعضاً، وقصد أهل البوادي المدن من الجوع ، فأغلقها أهلها دونهم ، وتبعه وباء، وموت كثيرٌ حتى خلت البلاد، وكان أهل البيت لا

يبقى منهم أحد، وسار كثيرٌ منهم إلى صقلية، في طلب القوت ولقوْا أمراً عظيماً .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية(1) بإفريقية

قد ذكرنا سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، مسير أهل يوسف ، صاحب قابس ، إلى رجار ملك صقلية، واستغاثتهم ، به فغضب لذلك ، وكان بينه وبين الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي ،صاحب افريقية، صلح وعهود إلى مدة سنتين ، وعلم أنه فاته فَتْحُ البلاد، في هذه الشدة التي أصابتهم ، وكانت الشدة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين الى هذه السنة ، وكان أشد ذلك ،سنة اثنتين وأربعين ، فان الناس فارقوا البلاد والقرى، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية، وأكل الناس بعضهم بعضاً، وكثرُ الموت في الناس ، فاغتنم رجار هذه السنة فعمر الأسطول ، وكثر منه ، فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالًا وسلاحاً وقوتاً وسار الأسطول عَنْ صقلية، ووصل إلى جزيرة قوصرة، وهي ما بين المهدية وصقلية، فصدفوا بها مركباً، ووصل من المهدية، فأخذ أهله واحضروا بين يدي جرجي ، مقدم الأسطول ، فسألهم عن حال أفريقية ، ووجد في المركب قفص حمام ، فسألهم هل أرسلوا منها، فحلفوا بالله أنهم لم يرسلوا شيئاً، فأمر الرجل ، الذي كان الحمام صحبته ، أن يكتب بخطه : إنّنا، لما وصلنا جزيرة قوصرة، وجدنا بها مراكب من صقلية ، فسألناهم عن الأسطول المخذول ، فذكروا أنه أقلع إلى جزائر القسطنطينية ، وأطلق الحمام ، فوصل إِلى المهدية ، فسر الأمير الحسن والناس ، وأراد جرجي بذلك أن يصل بغتة، ثم سار، وقدر وصولهم إلى المهدية، وقت السحر، ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها، فلو تم له ذلك ، لم يسلم منهم أحد، فقدر الله تعالى ، أنْ

أرسل جمليهم ريحا هائلاً، فلم يقدروا على السير إلا بالمقاذيف ، فطلع النهار ثاني صفر، في هذه

(1) المهدية : بينها وبين القيروان مرحلتان.

السنة، قَبْلَ وصولهم ، فرآهم الناس ، فلما رأى جرجي ذلك ، وأن الخديعة فاتته ، أرسل إلى الأمير الحسن يقول : إنما جئت بهذا الأسطول طالباً بثأر محمد بن رشيد، صاحب قابس ،ورده اليها ،وأما أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق إلى مدة ، ونريد منك عسكراً يكون معنا . فجمع الحسن الناس من الفقهاء والأعيان وشاورهم ، فقالوا : نقاتل عدونا فان بلدنا حصين فقال : أخاف أن ينزل إلى البر ويحصرنا براً وبحراً، ويحول بيننا وبين الميرة، وليس عندنا ما يقوتنا شهراً ، فنؤخذ قهراً ، وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل ، خيراً من الملك ، وقد طُلب مني عسكراً إلى قابس ، فان فعلت فما يحل لي معونة الكفار على المسلمين ، لان امتنعت ، يقول : انتقض ما بيننا من الصلح ، وليس يريد إلا أن يثبطنا، وحتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة، والرأي أن نخرج بالأهل والولد ، وننزل عن البلد ، فمن أراد أن يفعل كفعلنا ، فليبادر معنا ، وأمر في الحال بالرحيل ، وأخذ معه من حضره ، وما خف حمله ، وخرج الناس على وجههم بأهليهم وأولادهم .وما خف من أموالهم وأثاثهم ، ومن الناس مَنِ اختفى عِنْد النصارى ، وفي الكنائس ، وبقي الأسطول في البحر، تمنعه الريح من الوصول إلى المهدية، إلى ثلثي النهار، فلم يبق في البلد ممن عزم على الخروج أحد، فوصل الفرنج ، ودخلوا البلد بغير مانع ، ولا دافع ، ودخل جرجي القصر فوجده على حاله ، لم يأخذ الحسن منه ، إلا ما خف من ذخائر الملوك ، وفيه جماعة مِنْ حظاياه ،ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة، وكل شيء غريب ، يقل وجود مثله ، فختم عليه ، وجمع سراري الحسن مِن قصره ، وكان عدة مَنْ ملك منهم ، من زيري بن مناد إلى الحسن ، تسعة ملوك ومدة ولايتهم مائة

سنة، وثمانين سنة ، من إحدى وستين وثلاثمائة، إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وكان بعض القواد ، قد أرسله الحسن إلى رجار، برسالة فأخذ لنفسه وأهله منه أماناً، فلم يخرج معهم ، ولما ملك المدينة نهبت مقدار ساعتين ، ونودي بالأمان خرج من كان مستخفياً وأصبح جرجي من الغد، فأرسل إلى من قَرُب من العرب ، فدخلوا إليه فأحسن إليهم ، وأعطاهم أموالًا جزيلة، وأرسل من جند المهدية الذين خلفوا بها، جماعة ومعهم أمان لأهل المهدية الذين خرجوا منها، ودواب يحملون عليها الأطفال والنساء ، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ، ولهم بالمهدية خبايا وودائع ، فلما وصل إليهم الأمان ، رجعوا ،، فلم يمض غير جمعة، حتى رجع أكثر أهل البلد، وأما الحسن : فانه سار بأهله وأولاده ، وكانوا اثني عشر ولداً ذكراً ، غير

الاناث ، وخواص خدمه ، قاصداً إلى محرز بن زياد، وهو بالمعلقة ، فلقيه في طريقه أميرٌ من العرب ، يسمى حسن بن ثعلب ، فطلب منه مالًا انكر له في ديوانه ، فلم يمكن الحسن إخراج مال ، لئلا يؤخذ فسلم إليه ولده يحيى رهينةً ، وسار فوصل في اليوم الثاني إلى محرز، وكان الحسن قد فضله على جميع العرب ، وأحسن اليه ووصله بكثير من المال ، فلقيه محرز لقاءً جميلاً وتوجع لما حل به ، فأقام عنده شهوراً والحسن كارهَ للإقامة ، فأراد المسير إلى ديار مصر، إلى الخليفة الحافظ العلوي ، واشترى مركباً لسفره ، فسمع جرجي الفرنجي ، فجهز شواني ليأخذه فعاد الحسن عن ذلك ، وعزم على المسير إلى عبد المؤمن بالمغرب ، فأرسل كبار أولاد يحيى وتميماً وعلياً ، إلى يحيى بن العزيز، وهو من بني حماد، وهما أولاد عم ، يستأذنه في الوصول إليه ، وتجديد العهد به ، والمسير من عنده ، إلى عبد المؤمن ، فأذن له يحيى، فسار إليه ، فلما وصل لم يجتمع به يحيى ، وسيره إلى جزيرة بني مزغنان ، هو وأولاده ، ووكل به من يمنعهم من التصرف ، فبقوْا كذلك إلى أن ملك عبد المؤمن بجاية، سنة سبع وأربعين ، فحضر عنده ، وقد ذكرنا حاله هناك ، ولمّا استقرّ جرجي بالمهدية، سيّر أسطولًا بعد أسبوع ، إلى مدينة سفاقس ، وسيّر أسطولًا آخر إلى مدينة سوسة ،فأمّا سوسة فإن أهلها لما سمعوا خبر المهدية ، وكان واليها علي بن الحسن الأمير، فخرج إلى أبيه ، وخرج الناس لخروجه ، فدخلها الفرنج ،بلا قتال ،ثاني عشر صفر. وأما سفاقس ، فإن أهلها أتاهم كثير من العرب ، فامتنعوا بهم ، فقاتلهم الفرنج ، فخرج اليهم أهل البلد، فاظهر الفرنج الهزيمة، وتبعهم الناس ، حتى ابعدوا عن البلد، ثم عطفوا عليهم فانهزم ،

قوم الى البلد، وقوم إلى البرية، وقُتِلَ منهم جماعةٌ ، ودخل الفرنج البلد، فملكوه بعد قتالٍ شديدٍ ، وقَتْلى كثيرٌ ، وأسِر من الرجال وسُبيَ الحريمُ ، وذلك في الثالث والعشرين من صفر، ثم نودي بالأمان فعاد أهلها إليها ، وافتكوا حرمهم وأولادهم ، ورُفق بهم ، وبأهل سوسة والمهدية، وبعد ذلك وصلت كتبٌ مِنْ رجار، لجميع أهل أفريقية، بالامان والمواعيد الحسنة ، ولما استقرت أحوال البلاد، سار جرجي ، في أسطولٍ ، إلى قلعة اقليبية، وهي قلعةٌ حصينةٌ فلما وصل إليها، سمعته العرب ، فاجتمعوا إليها، ونزل اليهم الفرنج ، فاقتتلوا فانهزم الفرنج ، وقُتِلَ منه خلقٌ كثيرٌ ، فرجعوا خاسرين الى المهدية، وصار للفرنج من طرابلس الغرب إلى قريب تونس ، ومن المغرب إلى دون القيروان والله أعلم .

في هذه السنة، سار ملك الألمان من بلاده في خلقٍ وجمعٍ عظيمٍ من الفرنج ، عازماً على قصد بلاد الإسلام ،وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال ، لكثرة جموعه ، وتوفر أمواله ، وعدده ، فلما وصل إلى الشام ، قصده مَنْ به مِنَ الفرنج ، وخدموه وامتثلوا أمره ونهيه ، فأمرهم بالمسير معه الى دمشق ، ليحصرها ، ويملكها – بزعمه – فساروا معه ، ونازلوها، وحصروها،وكان صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغدكين ، وليس له من الأمر شيء ، وإنما الحكم في البلد، لمعينِ الدين أنز، مملوك جده طغدكين ، وهو الذي أقام مجير الدين ، وكان معين الدين عاقلَا عادلاً خَثراً حسن السيرة ، فجمع العساكر، وحفظ البلد ، وأقام الفرنج يحاصرونهم ، ثم إنهم زحفوا سادس ربيع الأول ، بفارسهم وراجلهم ، فخرج إليهم أهل البلد ، والعسكر فقاتلوهم ، وصبروا لهم ، وفيمن خرجِ للقتال الفقيه ، حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي ، كان شيخاً كبيراَ فقيهاً صالحاً، فلما رآه معين الدين وهو راجل ، قصده وسلَّم عليه ، وقال له : يا شيخ ، أنت معذور لكبر سنك ، ونحن نقوم بالذبّ عن المسلمين ، وسأله ان يعود، فلم يفعل ، وقال له : قد بعت واشترى مني ، فوالله لا أقلته ولا استقلته ،يعني قول الله تعالى {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة}(1)

وتقدّم فقاتل الفرنج حتى قُتلَ عند النيرب ، نحو نصف فرسخ عن دمشق ، وقري الفرنج ، وضعف المسلمون ، فتقدم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر، فأيقن الناس بأنه يملك البلد، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي يدعوه الى نصرة المسلمين ، وكف العدو عنهم ، فجمع عساكره ،

وسار الى الشام ، واصطحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب ، فنزلوا بمدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين ، يقول له : قد حضرت ، ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي ، فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج ، فإن انهزمت ، دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا به ، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه . فأرسل إلى الفرنج يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد ، فكفّ الفرنج عن القتال خوفاً مِنْ كثرة الجراح ، وربما اضطروا إلى قتال سيف الدين ، فأبقوا على نفوسهم ، فقوي أهل البلد على حفظه ، واستراحوا من

(11) سورة النوبة آية : 111 .

ملازمة الحرب ، وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء، يقول لهم : إن ملك المشرق قد حضر، فإن رحلتم ، وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ تندمون . وأرسل إلى فرنج الشام ، يقول لهم : بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق ، أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين ، وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق ، لا يبقى لكم معه مقام في الشام ، فأجابوه إلى التخلي عن ملك الألمان ، وبذل لهم تسلم حصن بانياس إليهم واجتمع الساحلية بملك الألمان ، وخوفوه من سيف الدين ، وكثرة عساكره ، وتتابع الأمداد إليه ، وإنّه ، ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته ، ولم يزالوا به ، حتى رحل عن البلد، وتسلموا قلعة بانياس ، وعاد الفرنج الألمانية إلى بلادهم ، وهي بزوراء القسطنطينية، وكفى الله المؤمنين شرهم .

وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر، في تاريخ دمشق ، أن بعض العلماء

حكى له أنّه رأى الفندلاوي في المنام ، فقال له : ما فعل الله بك ، وأين أنت ، فقال : غفر لي ، وأنا في جنات عدن على سرر متقابلين .

ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي حصن العزيمة

لما سار الفرنج عن دمشق ، رحل نور الدين إلى حصن العزيمة، وهو للفرنج ، فملكه ، وسبب ذلك أن ملك الألمان لما خرج إلى الشام ، كان معه ولد الفنش ، صاحب طليطلة ، وهو مِنْ أولاد أكابر ملوك الفرنج ، وكان جده ، هو الذي أخذ طرابلس الشام من المسلمين ، فأخذ حصن العزيمة ، وتملكه ، وأظهر أنه

يريد أخذ طرابلس ، من القمص إلى نور الدين محمود، وقد اجتمع هو ومعين الدين أنز ببعلبك ، يقول له ولمعين الدين ، ليقصدا حصن العزيمة ، ويملكا ولد الفُنش ، فسارا إليه مجدّين في عساكرهما ، وأرسلا إلى سيف الدين ، وهو بحمص ، يستنجدانه فأمدهما بعسكر كثير من الأمير عز الدين أبي بكر الدبيسي ، صاحب جزيرة ابن عمر وغيرها ، فنازلوا الحصن ، وحضروه وبه ابن الفنش ، وامتنع به فزحف المسلمون ، إليه غير مرة ، وتقدم إليه النقّابون ، فنقبوا السور، فاستسلم ، حينئذ، من به من الفرنج فملكه المسلمون ، وأخذوا كل مَنْ به مِن فارس وراجلٍ وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفُنش ، وأخربوا الحصن ، وعادوا إلي سيف

الدين ، وكان مثل ابن الفُنش كما قيل : خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير أذنين . .

ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء
ووصولهم إلى بغداد وما كان منهم بالعراق

في هذه السنة، فارق السلطان مسعود جماعة مِنْ أكابر الأمراء، وهم مِنْ أذربيجان ، أيلدكز المسعودي صاحب كَنجة وأرنية وقيصر، ومن الجبل : البقش كون خر ، وتتر الحاجب ، وهو مسعودي أيضاً ، وطرنطاي المحمودي شحنة واسط والدكين وقرقوب ، وابن طغايرك ، وكان سبب ذلك ميل السلطان إلى خاص بك ، واطراحه لهم ، فخافوا أن يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن وعباس وبوزابة، ففارقوه ، وساروا نحو العراق ، فلما بلغوا حلوان ، خاف الناس ببغداد، وأعمال العراق ، وغلت الأسعار، وتقدم الإِمام المقتفي لأمر الله بإصلاح السور، وترميمه ، وأرسل الخليفة إليهم بالعبادي الواعظ ، فلم يرجعوا إلى قوله ، ووصلوا ، إلى بغداد في ربيع الاخر، والملك محمد ابن السلطان محمود معهم ، ونزلوا بالجانب الشرفي ، وفارق مسعود بلال شحنة بغداد البلد خوفاً مِنَ الخليفة، وسار إلى تكريت ، وكانت له فعَظُم الأمر على أهل بغداد، ووصل إليهم علي بن دبيس ، صاحب الحلة، فنزل بالجانب الغربي ، فجند الخليفة أجناداً يحتمي بهم ، ووقع القتال بين الأمراء وبين عامة بغداد ومن بها من العسكر، واقتتلوا عدة دفعات . ففي بعض الأيام انهزم الأمراء الأعاجم من عامة بغداد مكراً وخديعةً ، وتبعهم العامة فلما أبعدوا عادوا عليهم ، وصار بعض العسكر من ورائهم ، ووضعوا السيف فَقُتِل من العامة خلقٌ كثيرٌ ، ولم يُبْقوا على صغيرٍ ولا كبير، وفتكوا فيهم ، فأصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله ، وكَثُر القتلى والجرحَى، وأُسِر منْهم

خلقٌ كثير، فقُتل البعض ، وشُهر البعض ، ودفن الناس مَنْ عرفوا ، ومن لم يُعرف ، تُرِك طريحاً بالصحراء ، وتفرق العسكر في المحال الغربية، فأخذوا من أهلها الأموال الكثيرة، ونهبوا بلد دجيل ، وغيره ، وأخذوا النساء والولدان ، ثم إن الأمراء اجتمعوا، ونزلوا مقابل التاج ، وقبلوا الأرض ، واعتذروا ، وترددت الرسل بينهم ، وبين الخليفة إلى آخر النهار، وعادوا إلى خيامهم ، ورحلوا إلى النهروان ، فنهبوا البلاد، وأفسدوا فيها ، وعاد مسعود بلال شحنة بغداد، من تكريت إلى بغداد، ثم إنّ هؤلاء الأمراء تفرقوا، وفارقوا العراق ، وتوفي

الأمير قيصر بأذربيجان ، وهذا كله والسلطان مسعود مقيمٌ ببلد الجبل ، والرسل بينه وبين عمه السلطان سنجر، متصلة، وكان السلطان سنجر قد أرسل اليه يلومه على تقديم خاص بك ، ويأمره بإبعاده ، ويتهدده بأنه إنْ لم يفعل أن يقصده ، ويزيله عن السلطنة، وهو يغالط ، ولا يفعل فسار السلطان سنجر إلى الري ، فلما علم السلطان مسعود بوصوله ، سار اليه ، وترضّاه ، واستنزله عما في نفسه ، فسكن ، وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعين ، على ما نذكره ، إنْ شاء الله تعالى .

ذكر انهزام الفرنج بيغرى

في هذه السنة، هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج ، بمكان اسمه يغرى من أرض الشام ، وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها ، فعلم نور الدين ، فسار اليهم في عسكره ، فالتقوا بيغرى ، واقتتلوا قتالاً شديداً أجلت المعركة عن انهزام الفرنج ، وقَتْل كثير منهم ، وأسْر جماعة من مقدميهم ، ولم ينج مِنْ ذلك الجمع إلا القليل ، وأرسل من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين ، وإلى الخليفة ببغداد، وإلى السلطان مسعود، وغيرهم ، وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسراني في قصيدته التي أولها :

¬ يا ليتَ أنّ الصد مصدودٌ أولا فليْتَ النومُ مردودُ

ومنها ما هو في ذكر نور الدين :

¬ وكيفَ لا يثنى على عيشِنَا المَحمودُ والسّلطان محمودُ

¬ وصارمِ الإِسلام لا ينثني إلا وَشِلْوُ الكفْرِ مقْدودُ

¬ مكارمٌ لم تكُ موجودةٌ إلّا ونورُ الدينِ موجودُ

وكمْ لهُ مِنْ وقعةٍ يومَها عِنْدَ–الملوكِ الكُفْرُ مشهودُ

ذكر ملك الغورية غَزْنة وعودهم عنها

في هذه السنة، قصد سوري بن الحسين ، ملك الغور، مدينة غزنة، فملكها وسبب ذلك ، أنّ أخاه ، ملك الغورية، قبله محمد بن الحسين ، كان قد صاهر بهرام شاه ، مسعود بن إبراهيم صاحب غزنة، وهو من بيت سبكتكين ، فعظُم شأنه بالمصاهرة، وعلت همّته ، فجمع جموعاً كثيرة، وسار إلى غزنة ليملكها . وقيل ، إنما

سار إليها مظهراً الخدمة والزيارة ، وهو يريد المكر والغدر، فعلم به بهرام شاه ، فأخذه ، وسجنه ، ثم قتله ، فعظُم قتله على الغورية، ولم يمكنهم الأخذ بثأره ، ولما قُتِل ، ملك بعده أخوه سام بن الحسين ، فمات بالجدري ، وملك بعده أخوه ، الملك سوري بن الحسين بلاد الغور والله أعلم . وقوي أمره ، وتمكّن في ملكه ، فجمع عسكره من الفارس والراجل ، وسار إلى غزنة طالباً بثأر أخيه المقتول ، وقاصداً ملك غزنة ، فلمّا وصل إليها ملكها في جمادى الأولى ، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وفارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند، وجمع جموعاً كثيرة، وعاد إلى غزنة، وعلى مقدمته السلار الحسين ، وإبراهيم العلوي ، أمير هندوستان ، وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سوري بن الحسين الغوري وخدموه قلوبهم مع بهرام شاه ، وإنما هم بظواهرهم مع سوري ، فلمّا التقى سوري وبهرام شاه ، رجع عسكر غزنة إلى بهرام شاه ، وصاروا معه ، وسلموا اليه سوري ملك الغورية ، وملك بهرام شاه غزنة في المحرم ، سنة أربع وأربعين وصلب الملك سوري ، مع السيد الماهياني في المحرم أيضاً ، من السنة . وكان سوري أحد الأجواد، له الكرم الغزير، والمروءة العظيمة ، حتى إنه كان يرمي الدراهم في المقاليع إلى الفقراء لتقع بيد من تقع ، ومن يتفق له. ثم عاود النورية ، وملكوها ، وخربوها ، وقد ذكرناه سنة سبع وأربعين ، وذكرنا هناك ابتداء دولة الغورية، لأنهم في ذلك الوقت عَظُم محلهم ، وفارقوا الجبال ، وقصدوا خراسان ، وعلا شأنهم ، وفي بعض الخلف كما ذكرناه والله أعلم .

ذكر ملك الفرنج مدناً من الأندلس

في هذه السنة ، ملك الفرنج بالأندلس مدينة طرطوشة ، وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وأفراغه ، ولم يبق

للمسلمين في تلك الجهات شيء ، إلا واستولى الفرنج على جميعه ، لاختلاف المسلمين بينهم ، وبقي بأيديهم إلى الآن .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، توفي أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبي غالب البغدادي المعروف أبوه بالخفاف ، سمع الحديث الكثير، وكان مفيد بغداد .

وفيها غلت الأسعار بالعراق ، وتعذرت الأقوات بسبب العسكر الوارد ، وقدم أهل

السواد إلى بغداد منهزمين ، قد أُخذت أموالهم ، وهلكوا جوعاً وعرياً، وكذلك أيضاً، كان الغلاء في اكثر بلاد خراسان ، وبلاد الجبل ، وأصفهان ، وديار فارس والجزيرة والشام ، وأما المغرب فكان أشد غلاء ، بسبب انقطاع الغيث ، ودخول العدو إليها . وفيها توفي إبراهيم بن نبهان الرقي ، ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وصحب الغزالي والشاسي ، وروى الجمع بين الصحيحين للحميدي عن مصنفه .

وفيها في ذي القعدة، توفي الإمام أبو الفضل الكرماني ، الفقيه الحنفي إمام خراسان .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك زنكي ، وبعض سيرته ، وملك أخيه قطب الدين :

في هذه السنة، توفي سيف الدين غازي بن أتابك زنكي ، صاحب الموصل ، بها بمرضٍ حادٍّ ، ولما اشتدّ مرضه ، أرسل إلى بغداد، واستدعى ، أوحد الزمان ، فحضر عنده ، فَرأى شدة مرضه ، فعالجه فلم ينجح فيه الدواء وتوفي أواخر جمادى الآخرة . وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما ، وكان حسن الصورة ، والشباب ، وكانت ولادته سنة خمسمائة، ودُفِن بالمدرسة التي بناها بالموصل ، وخلف ولداً ذكراً فرباه عمه ، نور الدين محمود ، وأحسن تربيته وزَوَّجه ابنة أخيه قطب الدين ، مودود ، فلم تطل أيامه ، وتوفي في عنفوان شبابه ، فانقرض عقب سيف الدين ، وكان كريماً شجاعاً عاقلاً، وكان يصنع ، كل يوم ، لعسكره طعاماً كثيراً ، بكرة وعشية، فأما الذي بكرة، فيكون مائة رأس غنم جيدة ، وهو أول من حمل على رأسه السنجق ، وأمر الأجناد ، أن لا يركبوا إلا بالسيف في أوساطهم ، والدبوس تحت أركبهم ، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف ، وبنى المدرسة الأتابكية العتيقة بالموصل ، وهي من أحسن المدارس ، ووقفها على الحنفية والشافعية ، وبنى رباطاً للصوفية بالموصل أيضاً ، على باب المشرعة، ولم تظل أيامه ليفعل ما في نفسه من الخير، وكان عظيم الهمّة ومن جملة كرمه أنه قصده شهاب الدين الحيص بيص ، وامتدحه بقصيدته التي أولها :

إلامَ يَراكَ المجدُ في زيِّ شاعرٍ وَقَدْ نَحُلَتْ شوقاً فروعُ المنابرِ

فوصله بألف دينار عين ، سوى الخلع وغيرها .

ولما توفي سيف الدين غازي ، كان اخوه قطب الدين مقيماً بالموصل فاتفق جمال الدين الوزير، وزين الدين علي أمير الجيش ، على تمليكه ، فأحضروه ، واستحلفوه ، وحلفوا له ، وأركبوه إلى دار السلطنة، وزين الدين في ركابه ، وأطاعه جميع بلاد أخيه

سيف الدين : كالموصل والجزيرة ، ولمّا ملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرناش ، التي كان قد تزوجها أخوه سيف الدين ، وتوفي قبل الدخول بها وهي أم أولاد قطب الدين : سيف الدين ، وعز الدين وغيرهما من أولاده .

ذكر استيلاء نور الدين على سنجار

لما ملك قطب الدين مودود الموصل بعد أخيه سيف الدين غازي ، كان –أخوه الأكبر نور الدين محمود بالشام ، وله حلب وحماة ، فكاتبه جماعةٌ مِنَ الأمراء ، وطلبوه ، وفيمن كاتبه ، المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد، وكان حينئذ مستحفظاً لسنجاز، فأرسل إليه يستدعيه ليتسلم سنجار، فسار جريدة في سبعين فارساً من أمراء دولته ، فوصل إلى ماكسين في نفر يسير، قد سبق من أصحابه ، وكان يوماً شديد المطر فلم يعرفهم الذي يحفظ الباب ، فأخبر الشحنة أن نفراً من التركمان المتجندين قد دخلوا البلد، فلم يستتم كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة، فقام إليه وقبل يده ، ولحق به باقي اصحابه . ثم سار الى سنجار، فوصلها وليس معه غير ركابي وسلاح دار، ونزل بظاهر البلد، وأرسل إلى المقدم يعلمه بوصوله ، فراه الرسول وقد سار الى الموصل وترك ولده شمس الدين محمداً بالقلعة، فأعلمه بمسير والده الى الموصل ، وأقام من لحق أباه بالطريق ، فأعلمه بوصول نور الدين ، فعاد إلى سنجار، فسلمها إليه ، فدخلها نور الدين وأرسل إلى فخر الدين قرا أرسلان ، صاحب الحصن ، يستدعيه إليه ، لمودة كانت بينهما ، فوصل إليه في عسكره ، فلما سمع أتابك قطب الدين وجمال الدين وزين الدين بالموصل بذلك ، جمعوا عساكرهم ، وساروا نحو سنجار، فوصلوا إلى تل يعفر، وترددت الرسل بينهم ، بعد أن كانوا عازمين

على قصده بسنجار، فقال لهم جمال الدين : ليس من الرأي محاقنته ، وقتاله ، فإننا نحن قد عظّمنا محله عند السلطان ، وما هو بصدده من الغزاة ، وجعلنا أنفسنا دونه ، وهو يظهر للفرنج تعظيماً ، وأنه تبعنا ولا يزال يقول لهم : إن كنتم كما يجب ، وإلا سلمت البلاد لصاحب الموصل ، وحينئذ يفعل بكم ويصنع ، فإذا لقيناه فإن هزمناه ، طمع السلطان فينا، ويقول هذا الذي كان يعظمونه ويحتمون به أضعف منهم ، وقد هزموه ، وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج ، ويقولون إن الذين كان يحتمي بهم أضعف منه ، وقد هزمهم ، وبالجملة فهو ابن أتابك ، وأشار بالصلح ، وسار هو إليه فاصطلح وسلم سنجار إلى أخيه قطب الدين ، وسلم مدينة

حمص والرحبة بأرض الشام إليه ، وبقي الشام له ، وديار الجزيرة لأخيه ، واتفقا ، وعاد نور الدين إلى حلب ، وأخذ معه ما كان قد ادخره أبو عماد الدين أتابك فيها، من الخزائن وكانت كثيرة جدا .

ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم بن المنتصر بالله العلوي ، صاحب مصر وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر، وعمره نحوٌ من سبع وسبعين سنة، ولم يزل في جميعها محكوما عليه ، يحكم عليه وزراؤه حتى أنه جعل ابنه حسناً وزيراً، وولى عهده فحكم عليه ، واستبد بالأمر دونه وقتل كثيراً مِنْ أمراء دولته ، وصادر كثيراً ، فلمّا رأى الحافظ ذلك سقاه سماً فمات ، وقد ذكرناه .

ولم يَلِ الأمر، من العلويين المصريين – من أبوه غير خليفة –غير الحافظ والعاضد ، وسيرد ذكر نسب العاضد، وولي الخلافة بعده بمصر، ابنه الظاهر بأمر اللّه أبو منصور اسماعيل بن عبد المجيد الحافظ ، واستوزر ابن مصال فبقي أربعين يوما يدبر الأمور فقصده العادل بن السلار من ثغر الإِسكندرية ، ونازعه في الوزارة ، وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة في طلب بعض المفسدين من السودان ، فخالفه العادل بالقاهرة، وصار وزيراً، وسيّر عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي في عسكره ، وهو ربيب العادل ، إلى ابن مصال ، فظفر به وقتله ، وعاد إلى القاهرة ، واستقر العادل ، وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم . وأما سبب وصول عباس إلى مصر، فإن جده يحيى أخرج أبا الفتوح من المهدية، فلما توفي يحيى وولّي بعده ، بلاد أفريقية ابنه

علي بن يحيى بن تميم بن يحيى، صاحب افريقية، أخرج أخاه أبا الفتوح ، والد عباس من أفريقية سنة تسع وخمسمائة ، فسار إلى الديار المصرية ، ومعه زوجته بلارة ابنة القاسم بن تميم بي المعز باديس وولده عباس هذا وهو صغير يرضع ، ونزل أبو الفتوح بالاسكندرية ، فاكرم ، وأقام بها مدة يسيرة ، وتوفي ، وتزوجت بَعدُ امرأته بلارة ، بالعادل بن السلار، وشب العباس ، وتقدم عند الظافر، حتى وُلي الوزارة بعد العادل ،فإنّ العادل قُتِل في المحرم سنة ثمان وأربعين . قيل وضع ربيبه عباس من قتله ، فلما قتل وُلي الوزارة بعده ، وتمكن منها وكان جلداً حازماً، ومع هذا ففي أيامه

أخذ الفرنج عسعقلان واشتد وهن الدولة بذلك . وفي أيامه أخذ نور الدين محمود دمشق ، من مجير الدين أبق ، وصار الأمر بعد هذا إلى أن أخذت مصر منهم ، على ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

ذكر عود جماعة من الأمراء إلى العراق

في هذه السنة، في رجب ، عاد البقش كون خر والطرنطاي وابن دبيس ومعهم ملكشاه، ابن السلطان محمود، إنى العراق ، وراسلوا الخليفة في الخطبة لملكشاه ، فلم يلتفت إليه ، وجمع العساكر، وحصن بغداد، وأرسل إلى السلطان مسعود يعرَّفه بالحال ، فوعده بالوصول إلى بغداد، فلم يحضر، وكان سبب ذلك ، ما ذكرناه من وصول عمه ، السلطان سنجر، إلى الري في معنى خاص بك ، فلما وصل إلى الري سار إليه السلطان مسعود، ولقيه ، واسترضاه فرضي عنه ، فلما علم البقش بمراسلة الخليفة إلى مسعود، نهب النهروان ، وقبض على الأمير علي بن دبيس في رمضان ، فلمّا علم الطرنطاي بذلك ، هرب إلى النعمانية ، ووصل السلطان مسعود، منتصف شوال ، ورحل البقش كون خر من النهروان ، وأطلق علي بن دبيس ،فلما وصل السلطان إلى بغداد، قصده علي وألقى بنفسه بين يديه ، واعتذر، فرضي عنه . وذكر بعض المؤرخين هذه الحادثة سنة أربع وأربعين ، وذكر ايضاً مثلها سنة ثلاث وأربعين ، فظنهما حادثتين وأنا أظنها واحدة، ولكنّا تبعناه في ذلك ، ونبّهنا عليه .

ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية وهزيمة الفرنج

في هذه السنة، غزا نور الدين محمود بن زنكي ، بلاد الفرنج من ناحية انطاكية، وقصد حصن حارم ، وهو للفرنج ، فحصره وخرب ربضة ، ونهب سواده ، ثم رحل إلى حصن أنب ، فحصره

أيضاً . فاجتمعت الفرنج مع البرنس ، صاحب انطاكية وحارم وتلك الأعمال ، وساروا إلى نور الدين ليرحلوه عن أنب ، فلقيهم واقتتلوا قتالًا عظيماً، وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتِل منهم جمعٌ كثير، وأسروا مثلهم ، وكان مس قُتِل البرنس ، صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج ، وعظيماً من عظائمهم ، ولما قتِل البرنس ،ملك بعده ابنه بيمند، وهو طفل ، فتزوجت أمه ببرنس آخر، ليدبر البلد، إلى أن يكبر ابنها، وأقام معها بأنطاكية، ثم إن نور الدين غزاهم غزوة اخرى، فاجتمعوا ولقوه ، فهزمهم ، وقتل قيهم وأسر، و.كان فيمن أسر

البرنس الثاني ، زوج أم بيمند، فتمكن حينئذ بيمند بأنطاكية، وأكثر الشعراء مديح نور الدين ، وتهنئته بهذا الظفر، فإن قَتْل البرنس كان عظيماً عند الطائفتين وممن قال فيه : القيسراني الكاتب في القصيدة المشهورة التي أولها :

١ هذي العزائم لاما تدَّعي القُضُبُ وذي المكارمُ لا ما قالتِ الكُتبُ

٢ وهذه الهممُ اللاتي ،متَى خطبَتْ تعثّرتْ خلفَها، الأشعارُ والخُطَبُ

٣ صافحْتَ يا ابن عمادِ الدين ذروتَها براحةٍ للمساعي ، دونها تعبُ

٤ ما زالَ جدُك يبني كلَّ شاهقةٍ حتّى بنى قبةً أوتادُها، الشهبُ

٥ أَغرتْ سيوفُكَ بالِإفرنجَ ، راجفةً فؤاد رومية الكُبْرَى لها يجبُ

٦ ضَربْتَ كَبْشَهُمُ مِنْها، بقاصمة أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

٧ طفَرتَ أرض الأعادي مِنْ دمائهم طهارةً، كلّ سيفٍ عندها جنبُ

ذكر الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم

في هذه السنة اختلف رجار الفرنجي ، صاحب صقلية، وملك القسطنطينية، وجرى بينهما حروب كثيرة ، ودامت عدة سنين ، فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ، ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد أفريقية ، وكان القتال بينهم براً وبحراً ، والظفر، في جميع ذلك ، لصاحب صقلية، حتى إنّ اسطوله ، في بعض السنين ، وصل

إلى مدينة القسطنطينية، ودخل فم المينا، وأخذوا عدة شواني مِنَ الروم ، وأسروا جمعاً مِنهُم ، ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب ، وكان الذي يفعل هذا بالروم والمسلمين ، جرجي ، وزير صاحب صقلية ، فمرض عدة أمراض ، منها البواسير والحصا ، ومات سنة ست وأربعين وخمسمائة، فسكنت الفتنة واستراح الناس من شره ، وفساده ، ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه بعده .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ، زلزلت الأرض زلزلةً عظيمةً ، فقيل إن جبلاً ، مقابل حلوان ، ساخ في الأرض .

وفيها ولي أبو المظفر يحيى بن هبيرة، وزارة الخليفة ، المقتفي لأمر الله ، وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام ، وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد،

وحسن قيام في ردِّهم ، فرغب الخليفة فيه ، فاستوزره يوم الأربعاء رابع ربيع الأخر، سنة أربع وأربعين ، وكان القمر على تربيع زحل ، فقيل له : لو أخرت لبس الخلعة لهذه التربيعات ، فقال : وأيّ سعادة أكبر من وزارة الخليفة ، ولبسها ذلك اليوم .

وفيها في المحرم ، توفي قاضي القضاة، علي بن الحسين الزيني ، ووُلي القضاء، عماد الدين أبو الحسن علي بن أحمد الدامغاني . وفيها في المحرم رَخُصت الأسعار بالعراق ، وكثُرت الخيرات ، وخرج أهل السواد إلى قراهم . وفيها توفي الأمير نظر، أمير الحاج وكان قد سار بالحاج إلى الحلة، فمرض واشتدّ مرضه ، واستخلف على الحاجِ قايماز الأرجواني ، وعاد إلى بغداد مريضاً فتوفي في ذي القعدة، وكان خصياً عاقلاً خيِّراً، له معروف كثير، وصدقات وافرة . وفيها توفي أحمد بن نظام الملك ، الذي كان وزير السلطان محمد والمسترشد باللّه . وفيها توفي علي بن رافع بن خليفة الشيباني ، وهو من أعيان خراسان ، وله مائة وسبع سنين شمسية . ومات الإِمام مسعود الصوابي ، في المرحم منها . وفيها توفي معين الدين ، أنز، نائب أبق صاحب دمشق ، وهو كان الحاكم والأمر إليه ، وكان ابق صورة أمير لا معنى تحتها . وفيها توفي القاضي أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني أبو بكر، قاضي تستر، وله شعر حسن فمنه قوله :

ولمّا بلوْتُ الناسَ أطلب عندَهُم أخاً، ثقةً، عندَ اعتراض الشّدائدِ

تَطَلّعْتُ في حالي رخاء وشدّة ونديت في الأحياء: هل مِنْ مساعدِ

فلمْ أرَ فيما ساءني غير شامتٍ ولم أر، فيما سرّني غير حاسدِ

تمتعتما يا ناظري بنظرةٍ وأوردتما قلبي ، أمر المواردِ

أعينى كُفَا عن فؤاديَ فإنَه مِنَ البَغْي سعى اثنين في قتلِ واحدِ

وفيها توفي أبو عبد الله عيسى بن هبة الله بن عيسى البزاز، وكان ظريفاً وله شعر حسن ، كتب اليه صديق له رقعة وزاد في خطابه فأجابه :

قَدْ زِدْتني في الخطابِ حتّى خَشَيْتُ نقصاً مِنَ الزياده

فاجعلْ خطابي خطابَ مثلي ولا تغيّرُ علي عاده

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة

ذكر أخذ العرب الحجاج

في هذه السنة، رابع عشر المحرم ، خرج العرب زعب ، ومن انضم إليها على الحجاج بالغرابي ، بين مكة والمدينة، فأخذوهم ولم يسلم منهم إلا القليل .

وكان سبب ذلك : أن نظراً ، أمير الحاجِ ، لما عاد من الحلة – على ما ذكرنا – وسار على الحاج ، قايماز الأرجواني ، وكان حدثا غراً ، فسار بهم إلى مكة ، فلمّا رأى أمير مكة قايماز، استصغره ، وطمع في الحاج ، وتلطف قايماز الحال معه إلى أن عادوا ، فلما سار عن مكة، سمع باجتماع العرب ، فقال للحاج من المصلحة أنا لا نمضي إلى المدينة، فضج العجم ، وهددوه بالشكوى مِنْه الى السلطان سنجر، فقال لهم فأعطوا العرب مالا نستكفي به شرهم ، فامتنعوا من ذلك ، فسار بهم إلى الغرابي ، وهو منزل يخرج إليه من مضيق جبلين ، فوقفوا على فم مضيق ، وقاتلهم قايماز ومن معه ، فلما رأى عجزه ، أخذ لنفسه أماناً، وظفروا بالحجاج ، وغنموا أموالهم ، وجميع ما معهم ، وتفرق الناس في البر، وهلك منهم خلقٌ كثير لا يُحصَوْن كثرةً، ولم يسلم إلا القليل ، فوصل بعضهم إلى المدينة ، وتحملوا منها الى البلاد، وأقام بعضهم مع العرب ، حتى وصل إلى البلاد . ثم إن الله تعالى اقتص للحاج من زعب ، فلم يزالوا في نقصٍ وذِلّة ، ولقد رأيت شاباً منهم بالمدينة، سنة ست وسبعين وخمسمائة، وجرى بيني وبينه مفاوضة، قلت له فيها : إنني ، والله ، كنت أميل اليك ، حتى سمعت أنك من زعب فنفرت وخفت شرك ، فقال : لم ؟ فقلت : بسبب أخذكم الحاج ، فقال لي أنا لم أدرك ذلك الوقت ، وكيف رأيت اللّه صنع بنا، واللّه ما أفلحنا ولا نجحنا، قل العدد، وطمع العدو فينا .

ذكر فتح حصن فاميا(1)

في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن الشهيد زنكي حصن فاميا من الفرنج ، وهو مجاور شيزر وحماة، على تلٍّ عالٍ ، من أحصن القلاع وأمنعها ، فسار نور الدين إليه ، وحصره وبه الفرنج ، وقاتلهم وضيّق على من بها منهم ، فاجتمع من بالشام من الفرنجِ ، وساروا نحوه ليرحلوه عنهم ، فلم يصلوا إلا وقد ملكه ، وملأه ذخائر وسلاحاً ورجالاً، وجميع ما يحتاج إليه ، فلما بلغ سير الفرنج إليه رحل عنه ، وقد فرغ من أمر الحصن ، وسار إليهم يطلبهم ، فحين رأوا أن الحصن قد ملك ، وقوة عزم نور الدين على لقائهم ، عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم ، وراسلوه في المهادنة ، وعاد سالماً مظفراً، ومدحه الشعراء، وذكروا هذا الفتح ،فمن ذلك قال ابن الرومي من قصيدة أولها :

ـ أسنى الممالكُ ،ما اطلت منارها وجُعِلَتْ مُرْهِفَةَ الدسار دِسارُها

ـ وأحقُّ مَنْ ملك البلادَ وأهلها رؤوفٌ تكنفَ عَدْلُه أقطارَها

ومنها في وصف الحصن :

ـ أدْرَكْتَ ثأرَكَ في البغاةِ، وكنت ، يا مختارَ امةَ أحمدِ، مختارُها

ـ ضاءَت نجومُكَ فوقَهَا، ولطالَما باتَتْ تنافثها النجومُ شرارُها

ـ عاريةُ الزمنِ المعيرِ ثمالها مِنْكَ المعيرةُ، فاسترد معارَها

ـ أمست مع الشعرى العبور وأصبحت شعراء تستفلى الفحول شوارها

وهي طويلة

ذكر حصن الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها

في هذه السنة سار، السليطين ، وهو الأذفونش ، وهو ملك طليطلة وأعمالها ، وهو من ملوك الجلانقة – نوع من الفرنج – في أربعين ألف فارس ، إلى مدينة قرطبة، فحصرها، وهي في ضعفٍ وغلاء، فبلغ الخبر إلى عبد المؤمن ، وهو بمراكش ، فجهز عسكراً كثيراً ، وجهز مقدمهم أبا زكريا يحيى بن يرموز، ونفذهم إلى قرطبة ، فلما قربوا منها لم يقدروا أن يلقوْا عسكر السليطين في الوطاء، وأرادوا الاجتماع بأهل قرطبة

(1) فاميا: في معجم البلدان فامية، مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص وقد يقال لها أفامية.

ليمنعوها لخطر العاقبة بعد القتال ، فسلكوا الجبال الوعرة، والمضايق المتشعبة، فساروا نحو خمسة وعشرين يوماً في الوعر، في مسافة أربعة أيام في السهل ، فوصلوا إلى الجبل المطل على قرطبة، فلما رآهم السُّلَيطين ، وتحقق أمرهم رحل عن قرطبة، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب ، من ولد القايد بن غلبون ، وهو من أبطال أهل الأندلس وأمرائها، فلما رحل الفرنج ، خرج منها لوقته ، وصعد إلى ابن يرموز، وقال له : انزلوا عاجلًا، وادخلوا البلد ، ففعلوا ، وباتوا فيها فلمّا اصبحوا من الغد ، رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذي كان فيه عسكر عبد المؤمن ، فقال لهم أبو الغمر: هذا الذي خفته عليكم ، لأني علمت أن السليطين ما أقام إلا طالباً لكم ، فإنّ من الموضع الذي كان فيه ، طريقٌ سهلةٌ ، ولو لحقكم هناك ، نال مراده منكم ، ومن قرطبة ، فلمّا رأى السليطين أنهم قد فاتوه ، علم أنه لم يبق له طمعٌ في قرطبة، فرحل عائداً إلى بلاده ، وكان حصره لقرطبة ثلاثة أشهر والله أعلم .

ذكر ملك الغورية هراة

في هذه السنة، سار ملك الغور، الحسن بن الحسين ، من بلاد الغور إلى هراة، فحصرها ، وكان أهلها قد كاتبوه ، وطلبوا يسلموها إليه هرباً من الأتراك لهم ، وزوال هيبة السلطنة عنهم ، فامتنع أهل هراة عليه ثلاثة أيام ثم خرجوا إليه وسلّموا البلد، وأطاعوه ، فأحسن إليهم ، وأفاض عليهم النعم ، وغمرهم بالعدل ، وأظهر طاعة للسلطان سنجر، والقيام على الوفاء له ، والانقياد إليه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، أمر علاء الدين محمود بن مسعود الغالب على أمر، طُرَيثيث إقامة الخطبة للخليفة ، ولبس السواد ، ففعل الخطيب ذلك ، فثار به عمه وأقاربه ومن وافقهم ، وقاتلوه ، وكسروا المنبر، وقتلوا الخطيب ، وكان فعل علاء الدين هذا، لأن أباه كان مسلماً، فلما تغلب الإِسماعيلية على طريثيث ، أظهر موافقتهم ، وأبطن اعتقاد الشريعة ، وكان يناظر على مذهب الشافعي ، وازداد تقدما بطريثيث ، وجرت أمورها بإرادته ، فلما حضر الموت ، أوصى أن يغسله فقيه شافعي ، وأوصى إلى ابنه علاء الدين ، إنْ امكنه أنْ يعيد فيها إِظهار شريعة الإسلام ، فعل ، فلمّا رأى من نفسه قوة

فعله فلم يتم له ، وفيها كثر المرض بالعراق ، لا سيما ببغداد، ، وكثر الموت أيضاً فيها، ففارقها السلطان مسعود .

وفيها توفي الأمير علي بن دبيس بن صَدقة ، صاحب الحلة، بأسد أباد، وآتُهم طبيبه محمد بن صالح بالمواطأة عليه ، فمات الطبيب بعده بقريب .

وفيها استوزر عبد المؤمن ، صاحب بلاد المغرب ، أبا جعفر بن أبي أحمد الأندلسي ، وكان مأسوراً عنده ، فوُصِف له بالعقل ، وجودة الكتابة، فأخرجه من الحبس ، واستوزره ، وهو أول وزير كان للموحدين .

وفي هذه السنة، في المحرم ، جلس يوسف الدمشقي مدرساً في النظامية ببغداد، وكان جلوسه بغير أمر الخليفة، فمُنِع يوم الجمعة من دخول الجامع ، فصلى في جامع السلطان ، ومُنع من التدريس ، فتقدم السلطان مسعود إلى الشيخ أبي النجيب بأن يدرس فيها، فامتنع بغير أمر الخليفة ، فاستخرج السلطان إذن الخليفة في ذلك ، فدرس منتصف المحرم من السنة .

وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن علي مهران ، الفقيه الشافعي ، تفقه على الهراسي ، ووُلي قضاء نصيبين ، ثم ترك القضاء، وتزهد، فأقام بجزيرة ابن عمر، ثم انتقل إلى جبل ببلد الحصن ، في زاوية، وكان له كرامات طاهرة .

وفيها مات الحسن بن ذي النون بن أبي القاسم بن أبي الحسن المِسعري أبو المفاخر النيسابوري . سمع الحديث الكثير، وكان فقيهاً أديباً دائم الاشتغال ، يعظ الناس وكان مما ينشد :

ماتَ الكرامُ وولّوْا،وانقضوا، ومضوْا وماتَ مِنَ بعدهُم ، تِلْكَ الكراماتُ

وخلفوني في قومٍ ذوي سفه لو أبصروا طيف ضيف في الكرى، ماتوا

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة

ذكر انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك

في هذه السنة، جمع نور الدين محمود عسكره ، وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي ، وهي شمال حلب ، منها تل باشر وعين تاب ، وإعزاز، وغيرها، وعزم على محاصرتها، وأخذها، وكان جوسلين ، لعنه الله فارس الفرنج ، غير مدافع ، قد جمع الشجاعة والرأي ، فلما علم بذلك ، جمع الفرنج ، فأكثر، وسار نحو نور الدين ، فالتقوْا، واقتتلوا، فانهزم المسلمون ، وقُتِل منهم وأُسِر جمعٌ كثير، وكان في جملة من أسر، سلاح دار نور الدين ، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين ، فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان ، صاحب قونية، وأقصرا، وقال له : هذا سلاح زوج ابنتك ، وسيأتيك بعده ما أعظم منه ، فلما علم نور الدين الحال ، عظُم عليه ذلك ، وعمل الحيلة على جوسلين ، وهجر الراحة ليأخذ بثأره ، وأحضر جماعة من أمراء التركمان ، وبذل لهم الرغائب ، إنْ هم ظفروا بجوسلين ، وسلموه إليه ، إمّا قتيلاً أو أسيراً ، لأنّه علم أنه متى قصده بنفسه ، احتمى بجموعه وحصونه ، فجعل التركمان عليه العيون ، فخرج متصيِّداً ، فلحقت به طائفة منهم ، وظفروا به ، فصانعهم على مال يؤديه إِليهم ، فأجابوه ، إلى إطلاقه إذا حضر المال ، فأرسل في إحضاره ، فمض بعضهم إلى ابي بكر بن الداية، نائب نور الدين بحلب ، فاعلمه الحال فسيّر عسكراً معه ، فكبسوا أولئك التركمان ، وجوسلين معهم ، فأخذوه أسيراً ، وأحضروه عنده ، وكان أسْره من أعظم الفتوح ، لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين ، قاسي القلب ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، ولما أُسر سار نور الدين إلى قلاعه ، فملكها، وهي تل

باشر، وعين تاب وإعزاز، وتل خالد ، وقورس والراوندان ، وبرج الرصاص ، وحصن البارة ، وكفر سود ،

وكفر لاثا، ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك . من أعماله ، في مدة يسيرة يرد تفصيلها. وكان نور الدين كلما فتح منها حصناً ، نقل إليه مِنْ كل ما تحتاج إليه الحصون ، خوفاً من نكْثةٍ تلحق المسلمين من الفرنج ، فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها مِنَ العدو ومدحه الشعراء، فممن قال فيه القيسراني من قصيدة في ذكر جوسلين :

كما أهدتِ الأقدارُ للقُمْصِ أسْرَهُ   وأَسْعَدَ قرنُ مِنْ حوامِلِك الأَسْرُ

طَغَى وبغَى، عدواً على غلوائهِ   فأوْبَقَهُ الكفرانُ عدواه والكُفْرُ

وأمْست عزازٌ كاسمها بك عزة   تشق على النسرين ، لو أنّها وكرُ

فسِرْ، وامْلك الدنيا ضياءً وبهجةً   فبالأفقِ الداجي إلى ذا السنا فقرُ

كأبي بهذا العزمِ ، لا فل حده   وأَقصَاه بالأقصَى، وقد قضي الأمرُ

وقد أصبحَ البيتُ المقدَسُ طاهراً   وليس سوى جاري الدماءُ، له طهرُ

ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الأندلس

في هذه السنة، سيّر عبد المؤمن جيشاً كثيفاً، نحوَ عشرين الف فارس ، إلى الأندلس ، مع أبي حفص عمر بن يحص الهنتاتي ، وسير معهم نساءهم ، فكن يسرن مفردات ، عليهن البرانس السود، لير معهن غير الخدم ، ومتى قرب منهن رجل ضرب بالسياط ، فلما قطعوا الخليج ، ساروا إلى غرناطة ، وبها جمع من

المرابطين ، فحصرها عمر وعسكره، وضيقوا عليها، فجاء اليه احمد بن ملحان – صاحب مدينة وادي آش وأعمالها–– بجماعته ، ووحدوا ، وصار معه ، وأتاه إبراهيم بن همشك، صهر ابن مردنيش ، صاحب جيان وأصحابه ، ووحدوا ، وصاروا أيضاً معه ، فكثُر جيشه ، وحرضوه على المسارعة إلى ابن مردنيش ، ملك بلاد شرق الأندلس ، ليبغته بالحصار، قبل أن يتجهز، فلما سمع ابن مردنيش ذلك ، خاف على نفسه ، فأرسل إلى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ، ويستنجده ، ويستحثه على الوصول إليه ، فسار إليه الفرنجي في عشرة آلاف فارس ، وسار عسكر عبد المؤمن ، فوصلوا إِلى حمة بلقوارة، وبينها وبين مرسية التي هي مقر ابن مردنيش مرحلة، فسمعوا بوصول الفرنج ، فرجع وحصر مدينة المرية، وهي للفرنج ، عدة شهورٍ ، فاشتد الغلاء في العسكر، وعدمت الأقوات ، فرحلوا عنها وعادوا إلى أشبيلية، فأقاموا بها .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ، في ربيع الأخر، توفي العبادي الواعظ ، واسمه المظفر بن اردشير بخوزستان ، وكان الخليفة المقتفي لأمر الله ، قد سيره في رسالة إلى الملك محمد بن السلطان محمود، ليصلح بينه وبين بدر الحوائزي ، فتوفي هناك ، وجلس ولده ببغداد للعزاء، وأُقيم بحاجب من الديوان العزيز، وكان ابنه يجلس ، ويعظ ويذكر والده ، ويبكي هو والناس كافة ، ونُقِل العبادي إلى بغداد ، ودُفِن بالشونيزي ، ومولده سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وسمع الحديث من أبي بكر السروي ، وزاهر الشحامي وغيرهما .

وفيها انفجر بثق النهروان ، الذي أتمه يهروز، بكثرة الزيادة في تامرا ، وإهمال أمرها، حتى عظُم ذلك ، وتضرر به الناس .

وفيها سار الأمير قجق ، في طائفة من عسكر السلطان سنجر، إِلى طريثيث بخراسان ، وأغار على بلاد الإسماعيلية ، فنهب وسبى وخرّب وأحرق المساكن ، وفعل بهم أفاعيل عظيمة، وعاد سالماً .